

بَعْدَ بِنِ أَبِي وَقَّاصٍ

obeikandi.com

مشاهير العرب

٣

# سعد بن أبي وقاص

يقلم

عبد السلام العشري

الطبعة السادسة



دار المعارف

obeikandi.com

## صانع السهام

التفت الأسرة حول الفتاة الصغيرة ، ومسحت الأم دموعين متحدرتين على خدي الفتاة المتوردين ثم قالت في حنان : لا تحزني يا بني ، فسوف يكون لك في هذا البيت أهل مثل أهلك وعطف مثل عطف أبيك وأمك ، ولن أكلفك إلا أن تحملى طعام الغداء إلى الخانوت .

ولم يكن أحد في مكة يجهل خانوت السهام القريب من الكعبة أو لا يعرف صاحبه الفتي القرشي المعتر بنفسه ، فهو ابن مالك بن وهيب ابن عبد مناف ، وأمه حمنة بنت سفيان بن أمية بن عبد شمس .

كان الفتي يبكر إلى الخانوت قبل طلوع الشمس ، ويقضى يومه نشيطاً مكباً على عمله ، راضياً بما يدر عليه ذلك العمل من ربح وفير ، فقد كان ماهراً في برى السهام وصناعة القسي ، وهي من عدد الحرب التي يحسب لها حساب كبير ، لأنها تصيب قبل أن تصيب السيوف ، وتصل إلى ما لا تصل إليه الرماح ، وهي كذلك عدة الترف لمن يهون الصيد من الأغنياء ؛ يخرجون إليه للمتعة ، لا للقوت كما يصنع المقترون .

كان الفتي ناضر الوجه ممتلئاً بالجسم يميل إلى القصر ، تنطق ملامحه بأنه قطع السابعة عشرة من عمره ، يألفه شباب مكة ، ويحبون المكث في

حانوته ليروا حركات يديه الماهرتين ، وليشاهدوا الوافدين عليه من طالبي  
 السهام والتقى . وما يبدو في وجوههم وأحاديثهم من عزم واعتزاز ،  
 وليسمعوا ما يقصه بعض هؤلاء عن طرادته ومهارته في الرمي ، وعمما يجده  
 من لذة حين تفر الطباء أمامه والسهام تلاحقها حتى تشل حركتها ؛ وما  
 يرويه بعضهم عن حروبهم . مفاخرين بما ألقوا من سهام وما أصابت  
 من عيون وروعوس وصدور . مصورين ما يحسه الراى من زهو حين يختر  
 العدو على البعد ، قد أصاب السهم حبة قلبه فهوى في كامل سلاحه وعدته ،  
 وليتمتعوا كذلك بحديث الأعراب الذين يهبطون مكة في ثياب البادية  
 ولهجتها الجافة ، قد حملوا أمتعتهم على ظهورهم . وأقبلوا يبيعون ويشترى ،  
 ويعرضون على الفتى الباسم قسيهم المكسورة ليرى فيها رأيه . أو ليشتروا  
 جديداً أو يبروا بعض السهام .

واشدد ميل الفتيان إلى الحانوت ليروا الفتاة الصغيرة ذات العينين  
 النجلوين والبشرة الفضية والشعر الذهبي ، ولم يكن صاحب الحانوت  
 يميل إلى كثير منهم ، بل كان يألف من يكبرونه من العقلاء الذين  
 ينكرون على الظالمين ظلمهم ، ويددون أن يوضع حد لما في مكة من العدوان  
 والامتهانة بالضعفاء والمساكين ، وكان أكثرهم صلة به رجلا من كبار  
 التجار ذا نسب وشرف ، يحبه القوم ويلقبونه عتيقاً لحسن وجهه ، يقبل  
 كثيراً إلى حانوته فيتجاذبان أطراف الحديث .

جاءت الفتاة بالغداء ذات يوم وكان عتيق جالساً في الخانوت  
فسره حسنها ونشاطها وأديبها ، فسأل صاحبه :

— من تكون هذه الفتاة يا سعد ؟ !

— تجارية اشتريتها يا ابن أبي قحافة .

— تبارك الخلاق العظيم ! وما اسمها يا سعد ؟

— درة يا عتيق ، ألا يعجبك هذا الاسم ؟ !

— عربية يا سعد ؟

— أمها فارسية وأبوها عربي من الحيرة ، وقعت في يد بعض العرب

القاطنين في شرق الجزيرة ، حين هاجموا قافلة كانت تقطع الطريق  
من العراق إلى اليمن .

— أظنها من بنات الأمراء يا سعد !!

— إنها تقول ذلك يا ابن أبي قحافة ، وقد حدثني بأمر عجيب

نسيت أن أحدثك به .

— تقول الصديق يا سعد ، ألا ترى ما في وجهها من النضرة وما في

حديثها من الأدب ؟ ! احتفظ بها يا سعد وأحسن رعايتها ، وأكرم عزيز

قوم ذل ، ولكن ما الأمر العجيب الذي حدثتك به ؟

— شيء لا يتخيل يا عتيق ، لكنها تؤكد أنه شائع في بلادها وفي

بلاد الفرس .

— يتعلق بالعرب يا سعد ؟

— بالعرب جميعاً يا ابن أبي قحافة ، ملك كبير وسلطان عظيم !

— في الجزيرة يا سعد ؟ !

— في الجزيرة ، وفي بلاد الفرس الممتدة من شرق بلاد العرب إلى بلاد الصين ، فقد رأى كبير من رجال الدين عندهم يسمى الموبدان رؤيا في أيام كسرى أنو شروان ، وقصها على الملك وعلى المفسرين فأخافتهم وألوهها بملك العرب ، ولم يهدأ الملك حتى حسبوا له السنوات التي بينه وبين تحقيقها فوجدها طويلة فاطمأن قليلا ، لكنه ظل قلقاً حتى مات . رأى ذلك الموبدان يا ابن أبي قحافة أن الإبل الصعاب تقود الخيل العراب وتمتطع نهر دجلة ثم تنتشر في فارس وتستولى على بلاد الأنهار والقصور والرياحين . كان ذلك منذ أربعين عاماً يا ابن أبي قحافة ، هكذا تقول درة وتؤكدده .

وابتسم عتيق لهذه البشارة ، ثم خاضا في شئون القسي والسهام ، وشئون مكة والأصنام المنصوبة حول الكعبة ، يعبدها الناس ويتقربون إليها ويلبسون رغباتها ويخافونها كأنها ترى وتسمع وتغضب وترضى . ثم انصرف عتيق وهو يوصى سعداً بالفتاة التي تبشر العرب بالملك العريض صائحاً :

— ليس على الله مستحيل يا سعد !

## القافلة

لم يلتق الفتيان في الغد في حانوت سعد ، لأن مكة كانت تستعد لاستقبال القافلة العائدة من بلاد الفرس ، قد اهتم بها من لهم فيها تجارة ومن ليس لهم فيها شيء ، لأن تلك البلاد كان لها رنين في مسامع العرب ليس لغيرها من المحالك التي يتصلون بها . كانت مكة تتناقل القصص الكثيرة عن خيرات تلك البلاد ومتعتها ، يروونها كثير من الناس وخاصة البحارى الفارسيات ، يفضن فيها فيصدقن أحياناً ويغالين أحياناً لا سيما حين يقسو عليهن ساداتهن . وكان العرب القاطنون على حدود تلك البلاد في شرق الجزيرة كثيراً ما ينتهزون ضعف ملوك الفرس أو قيام ثورة من الثورات التي لا تكاد تنقطع في بلادهم ، فيغيرون على حدودهم وتسير أخبارهم في الجزيرة . فكانت عودة القافلة فرصة يستوضح بها القرشيون تلك الأخبار . وكان أبو سفيان بن حرب قد خرج إلى تلك البلاد في تجارة عظيمة وحمل معه الهدايا الملك الفرس ، ممثلاً عظمة قريش تمثيلاً يليق بحماة البيت الذي يعرفه الملوك ، ولا ينسى أحد أنه هزم بجيش أبرهة الحبشى حينها هم بالعدوان عليه .

كان هذا اليوم محددًا لعودة القافلة ، يعرفه أهل مكة ويؤكدونه ، فهم خبراء بمسالك بلادهم ، علماء بما يستغرقه المسافرون في الذهاب والإياب ، لأنهم يقدرّون المسافات بخطوات الإبل ، وخطواتها منتظمة لا تكاد أزمانها تختلف إلا إذا حدث في الطريق عائق من ثورة الرمال أو هجوم اللصوص والفتاك ، لكن قريشًا ذات عز ومنعة ، لا يستطيع أحد أن يهاجم قوافلها ، ولم تثر الصحراء في هذه المدة ، فكانت مكة على ثقة من عودة القافلة في ذلك اليوم .

خرج كثير من أهل مكة لاستقبال القافلة ، وجلس الرؤساء في نواديهم يترقبون ، واستعد من له مال في القافلة لسمع البشري بالريح الوفير ، ودقت قلوب الأمهات دقائق الخوف والأمل ، وتسلت الجوارى الفارسيات يتنسمن رائحة بلادهن ، وكانت درة فياضة الشوق تود لو تضع يديها على الجمال التي سارت في بلادها ، وتلمس كل من لمس أرضها وشم هواها وشرب ماءها ؛ ولبح سعد شديد اهتمامها فأشفق عليها ، وأذن لها بالخروج لتخفف شيئًا من لوعتها ، وتطفيء بمنظر اللقاء بعض ما في صدرها من الحنين لأهلها ووطنها .

كانت الشمس تميل للغروب وقد نثرت غلالة ذهبية على رءوس الجبال ، وفي استداد أشعتها كانت الأنظار ترتدى في مطارح بعيدة لتلتقي بالركب وتطمئن على العائدين ، ووضع الكثيرون راحتهم فوق أعينهم

لتحدد أنظارهم ، والتقى الفتية فوق القمم ودارت أعينهم تبحث عن سعد حتى لاح من بعيد فتى يرتقى الجبل في خطوات ثابتة فصاحوا به جميعاً :  
 — سعد ! انظر يا سعد ، أترى شيئاً في الأفق ؟ !

واستوى سعد على رأس الجبل ، وألقى بصره في الأفق الممتد في أشعة الشمس ثم صاح في ثقة :  
 — القافلة !

فارتفعت الأعناق ، وتناول القصار ، ومسح الكثيرون عيونهم ، ثم أعادوا النظر فلم يروا إلا بقعاً سوداء في الطريق كما يعهدون في مسالك الصحراء الممتلئة بالرمال والأحجار ، ثم صاحوا في غضب :

— تسخر منا يا سعد ؟ ! ليس إلا بقع سوداء ، وأغلب الظن أنها حجارة صغيرة !

وألقى سعد بصره على الناس ثم صاح في ثقة :

— لكنها القافلة أيها القوم ، يقودها أبو سفيان على بعير أدهم !  
 وأخذت القافلة تقترب شيئاً فشيئاً ، وتتضح معالمها شيئاً فشيئاً حتى ظهر أبو سفيان على بعيره الأدهم فهاج القوم وارتفعت الأصوات : « مرحى سعد ! مرحى سعد ! » وتسارع الناس هابطين يهرولون إلى أبنائهم وإخوانهم وأحبابهم ، وقفز كثير من الركاب وعانقوا مستقبلهم ، وضمت الصدور الصدور لتطنق هيب الشوق وحر الفراق ، وانطلقت الألسنة

بالترحاب والتهاني ، وامتلت بعض العيون بدموع الفرح ، وراحت  
عيون أخرى تبحث بين القافلة في لطفة ، ثم ازدحمت بها دموع  
حزينة، وعاد أصحابها ناكسي الرؤوس فقد ثوى أبناؤهم وإخوانهم في  
أحضان الصحراء .

التفت سعد فوجد الفتاة الصغيرة معلقة عينها بالقافلة والدموع تبلل  
وجنتها ، ثم ازدحم الحزن في صدرها فأجهشت بالبكاء وولت وجهها عن  
الناس ، فأسرع إليها ثم صاح بها في حنان :

— درة ! ماذا بك يا درة ؟ ! ألا يسرك منظر القافلة ؟ !

فابتلعت الفتاة دموعها ، وحاولت أن تجفف شيئاً مما في وجهها  
ثم قالت في صوت خفيض :

« سرني يا سيدي وخفف شيئاً من لوعتي ، وشممت في القافلة  
رائحة أبي وأمي .

ثم احتبس صوتها وخنقتها العبرات ، فتأثر سعد وعرف ما طاف بها  
حين رأت الركب وتذكرت أمها وأباها وما هي فيه من العبودية ، بعد  
أن كانت تأمر وتنهى فلا يعصى لها أمر ولا نهى ، فصاح بها في  
عطف : « عودي إلى البيت يا درة ! عودي فأنت حرة ! » . فأعادت  
الفتاة النظر إلى سيدها من خلف دموعها ثم قالت وهي تهيم بالعودة :

« وماذا تصنع الحرية لفتاة ليس لها أهل ولا وطن ! » ثم سارت إلى البيت .

ومضى سعد مع القافلة المتحركة إلى مكة ، ثم أخذ طريقه إلى المنزل بعد أن حيا أصحابه ووعدهم أن يسمر معهم تلك الليلة ، لسمع ما يقصه أولئك التجار من غرائب المدن وعجائب الأمصار ، ويمتدح نفسه بما يرويه بعضهم من أعمال البطولة في اختراق الآفاق واجتياز العقبات ، وما يضيفونه إلى الحوادث من صور بعيدة عن الحقيقة وإن كانت لذيدة محببة إلى القلوب ، ويعلم أبناء من لم يعد ، ويعرف ما حدثته به درة من أخبار الفرس ومهارتهم في الرمي واستخدام القسي ، ثم طاف بالكعبة ووقف أمام الأصنام فبدت له حجارة كالصخور الناتئة في الجبال لا تمتاز عنها بشيء سوى أنها صورت في صور مختلفة ، وأن كبيرها هبل ذو جسم من العقيق وذراع من الذهب . وأحس بالضيق يزدحم في صدره فأسرع إلى البيت ونزع قوسه وكنانته وتناول الطعام ، ثم أوى إلى حجرته ، وظل يمد فكره باحثاً عن سبب هذا الضيق ، حتى تقدم الليل وألهاه التفكير عن الذهاب إلى القوم كما تواعدوا ، فاضطجع في فراشه ثم راح في سبات عميق .

## القمر

ألقت شمس الصباح على مكة غلالة متلاألثة ، فيها حرارة تتزايد كلما ارتفعت في السماء ، واستيقظ سعد مبكراً كما اعتاد ، لكنه ظل في فراشه يمد بصره في جوانب الحجر ، وكانت أمه قد أعدت له طعام الإفطار كما تصنع كل يوم غير معتمدة على الخدم والجواري ، لم تجرب عليه أنه نام إلى الضحى كما يصنع كثير من فتيان مكة المترفين ، تعرف أنه رجل عمل وجد ، وأن بعض حرفائه يبكرون إلى حانوته وهم خارجون إلى الصحراء ، وارتابت في تأخره ودخلت حجرته لتطمئن عليه فوجدته في سريره حائر البصر يديره حوله ، فألقت عينيهما حيث ينظر فلم يقع بصرها على جديد ، فصاحت في دهشة :

— نعيم صباحك يا سعد ، لقد ارتفعت الشمس ولم تبرح سريرك ،  
فماذا بك اليوم ؟!

— لا شيء يا أمه ، ولكني أحس بالحاجة إلى الراحة .

— بل شيء يا سعد ! قرأت ما يضطرب في صدرك ، ورأيت في نظراتك الحائرة دليلاً على أنك تقلب في رأسك أمراً ، فهل عرض لك أحد بسوء أمس ؟

— ومن يستطيع أن يعرض لي بسوء يا أمه ؟ ! إن في سهمي وقوسى

وذراعى المفتولتين وتنشئتك الحكيمة ما يدفع عنى كل سوء .

— أحزين أنت على ابن عمك الذى واقاه الأجل فى فارس ؟

— كل شىء بقدرى يا أماه ، ولا تدرى نفس أين تموت ، ولا يملك أحد لنفسه ضرراً ولا نفعاً ، كلها بلاد الله يا أماه ؛ مكة أو فارس أو الروم أو الشام أو اليمن ، كلها أرض الله ، وإذا جاء الأجل فلن يدفعه مكان ولن يؤخره زمان ، ألا يموت من فى مكة يا أماه ؟ !

وأطرقت المرأة قليلاً ثم رفعت بصرها فوجدته غارقاً فى حيرته فقالت فى حنو : « إذا لم يكن شىء من هذا فما الذى أهملك يا سعد ؟ ! أنت محبوب رايح العمل ، فلا بد أن يكون فى طريقك شىء ، لكنى أستبعد أن يكون نزغة من نزغات الشباب ، أسرر لىّ ولن أبوح » .

ونظر سعد إلى أمه التى ورث منها الحزم وكبر القلب وسداد الرأى ثم قال :

— القمر يا أماه ! القمر الذى أنقذنى الليلة !

فاشددت حيرة المرأة ، وغمرت ابنها بنظرة فاحصة فرأت فى عينيه بريقاً غريباً ، وحاولت أن تنفذ إلى صدره فتكشف ما أهمه وما لا يريد أن يفصح به ثم قالت فى دهشة :

— القمر ! وأين التقيت الليلة بالقمر ؟ ! إنك لم تبرح البيت منذ عدت مبكراً ، فأين التقيت بهذا القمر الذى أنقذك ؟ ! ومم أنقذك هذا

القمر ؟ ! إنك تتحدث اليوم بشيء عجيب ! وهل يصرفك هذا القمر  
عن عملك والتبكير إلى حانوتك ؟ !

وصمتت المرأة ، ونظر إليها سعد فوجدها غارقة في دهشتها تنتظر  
أن يجيبها جواباً شافياً ، فهم من سريره يردد ياسما : « القمر  
يا أماه ! سأحدثك عنه في المساء » ثم ارتدى ملابسه وانصرف عن البيت  
غير ملتفت إلى الطعام المعد ، قد افتر ثغره عن ابتسامة رقيقة لم  
تخف ما يضطرب في نفسه ، لكنه صاح قبل أن يغادر البيت : « لا ترسلي  
درة بالطعام يا أماه ! لا ترسليها إلى الحانوت فلم تعد عبدة » .

زادت حيرة المرأة ونظرت إلى درة في دهشة ، وقد ظنت أن عندها  
مفتاح ما ألم بابنها ، لكنها لم تشأ أن تسألها عن شيء حتى ترى ما ينتهي  
إليه ذلك الاضطراب الذي كشفته هذا الصباح ، وأسرع الفتى إلى الحانوت  
فوجد حرفاءه في انتظاره ، قلقين لتأخره على غير عادته ، وأخذ يفتح الحانوت  
وهم يصبحون في فرح : « خيراً يا سعد ! » وهو يردد في هدوء :  
« خيراً وبركة إن شاء الله » ثم أقبل على عمله في وجوم أدهش  
حرفاءه ، فأعادوا أسئلتهم وأعاد جوابه وهو مستمر في عمله ، مؤدياً ما  
يريدون حتى لبي رغباتهم جميعاً ، ثم امتدت يده إلى مفاتيح الحانوت  
فأغلقه وسار في شوارع مكة ، حتى وجد نفسه أمام منزل من منازلها  
الكبيرة وصاحبه يرحب به ويدعوه للدخول ، فدخل ثم جلس صامتاً .

وأقبل الخادم بالتحية فمد صاحب البيت يده وتناول ثمرة من الطبق ثم قال في هدوء : « بسم الله الرحمن الرحيم » فانتفض سعد ، وسرت الرعدة في أوصاله ، ولم يمد يده إلى الطبق ، فنظر إليه الرجل في ابتسامة رقيقة ثم قال : « تمر عظيم يا ابن أبي وقاص ! خذ هذه مباركة طيبة » ومد سعد يده وتناول التمرة ، لكنه لم يضعها في فمه ، وظلت في يده وعيناه تنظران إلى الأرض ، فابتسم الرجل ثم قال في صوت هادئ :

— ماذا أهملك يا سعد ؟ ! ألم يربح مالك في القافلة ؟

— لم يكن لي في القافلة مال يا ابن أبي قحافة !

— ألم يعد أحد أصدقائك ؟ !

— وهل يحزن العاقل لأن أحداً مات يا ابن أبي قحافة ؟ ! كل

نفس ذائفة الموت ، وما خلقنا للخلود في هذه الحياة !

— أفي رأسك أمر تود ألا تكشفه يا سعد ؟ !

— فلماذا جئت إذن يا عتيق ؟ ! قد اخترتك لتكون أول مطلع على

ما في نفسي ، فقد امتلأ صدري بهم ثقيل !

— أسمرت الليلة مع السامريين وسمعت قصصهم ؟

— بل سمرت مع رؤيا عنيفة يا ابن أبي قحافة ، رأيت أني سائر في طريق

مظلم لا أستطيع كشف جادته ، وقد حاولت أن أشقه فارتطمت بصخوره

الناثئة ذات اليمين وذات اليسار ، ومع أنني كنت في علتي وسلاحي فقد

غمزنى خوف شديد لم أعهدده فى نفسى ، حتى يشمت وضقت بذلك  
الظلام الموحش ، وطفقت استغيث ، فاذا بالقمر يشرق فجأة يا عتيق .  
انبسطت أسارىر عتيق ، وكان قد آمن بمحمد بن عبد الله الذى  
نزل عليه الوحى من الله بدين جديد يدعو إلى الإخاء والمساواة ، ونيد  
الأصنام ، وتحطيم الفساد المنتشر فى الأرض ، فغمر الفقى بنظرة باسمه ثم  
قال فى رفق : « عندى تأويل رؤياك يا ابن أبى وقاص ، فأنت من الأعفاء  
الذين لم تشهد عليهم مكة شيئاً من طيش الشباب ، لقد رضى الله عنك  
وهذاك إلى الخير ، وأرسل لك القمر الذى يغمر الدنيا بنوره ويهدى إلى  
الطريق المستقيم » .

وأطرق سعد قليلاً ثم رفع رأسه فى هدوء كأنه وجد واحة ظليلة بعد  
رحلة شاقة فى صحراء موحشة ، ثم قال فى أمل : « هل أذن الله يا عتيق ؟! »  
فصاح عتيق فى سرور غامر :

— أذن يا سعد ، فهيا إلى رسول الله فى شعب أجياد ، وسوف  
تلتقى بمن تحبهم ويحبونك ، أذن الله لهم بمثل ما أذن لك ، وشرح  
صلورهم للحق ، ولاح لهم القمر الذى لاح لك ، وكنت وإياهم على  
موعد لنذهب إلى رسول الله فنتسمع آيات الله ، هيا يا سعد إلى الله وإلى  
رسول الله .

## ملوك الأرض

أسرع كثير من القرشيين إلى ظل الكعبة والتفوا حول أبي سفيان ابن حرب ، وأخذ هو ومن كانوا في القافلة يتحدثون عما رأوا في بلاد فارس من الجنات ذات الأشجار المتشابكة والقطوف الدانية ، وعن القصور العالية والأنهار العذبة الجارية ، تسيل مياهها فوق الأرض دون أن يخرجوها بدلاء ، وتهادى فيها السفن وتهتز القوارب ، ويصفون كسرى وتاجه المرصع بالياواقيت وجيوشه بالحرارة ، وما في تلك البلاد من قوانين تضبط تصرفهم وتعاملهم ، لكل من خالفها عقاب على قدر مخالفته يحكم به قضاة معينون لذلك ، إلا إذا أراد الملك أمراً فينفذ حكمه دون قضاء ولا جدل ، وكانوا ينصتون إلى تلك الأحاديث وأفكارهم تتقلب في جوانب حياتهم فلا يجدونها شيئاً بجانب ما سمعوا وإن كان بعضهم قد أقنع نفسه بأن حياتهم خير من تلك الحياة ، لأنهم يعيشون أحراراً يقولون ما يريدون ويتصرفون كما يريدون ، وينتقلون حيثما أحبوا ، ويقيمون حيث يطيب لهم المقام ، بعيدين عن تلك القيود التي تتحكم في البشر وتجعلهم عبيداً للملوك .

وكانت آذانهم تسمع وأيديهم تقلب صحافاً من الذهب والفضة ،

وعيونهم تدور في أوساط تلك الصحف وجوانبها متتبعة ما عليها من  
 النقموش ، وكل يصيح بالقوم ليروا ما في يده ؛ هذا غزال يفر أمام  
 الصائد كأنه حقيقة ، لا ينقصه إلا الروح ويتحرك ؛ وتلك أشجار  
 ملتفة الأغصان دائية القطوف يجرى تحتها الماء في صخب يكاد صوته  
 يلمس الآذان ، وهذه صورة كسرى تحت رايته الكبيرة مزهواً على  
 فرسه ، وحوله الخيول تزحم الفجاج يكادون يسمعون صهيلها ووقع  
 حوافرها .

ثم مد أبو سفیان يده بالصفحة المرسوم فيها كسرى وصاح  
 ساخراً :

— يريد محمد بن عبد الله الفقير أن يكون له مثل هذا ؟ ! وأنى له  
 ذلك السلطان وتلك الأرض التي تنبت الذهب والفضة ! ! ؟ طار به  
 الخيال إلى بلاد لن يدخلها ولن يجد من يحمله إليها ! ألم يسمع ولم  
 ير ؟ ! أروه هذه الصفحة التي تدور فيها معركة كسرى لعله يثوب  
 إلى رشده .

ثم التفت إلى رجل من الجالسين وصاح في تهكم :

— ألا ترد قريبيك يا أسود بن عبد يغوث ؟ ! لعل في الخطة أن

يعطيك مملكة من تلك الممالك التي استولى عليها في الخيال ! ولقد أغوى قريباً لك اليوم !

— قريبي أنا ؟ ! ومن يكون هذا الغر الذي خدعه محمد ؟ !

— سعد بن أبي وقاص بن وهيب ، سعد ابن عم آمنة بنت وهب ، يا أسود ، ألسنت ابن خال هذا النبي وابن عم سعد صاحب حانوت السهام ؟ ! لقد رؤى سائراً مع ابن أبي قحافة في حذر كأنهما يتلصصان ، وذهب الناس إلى حانوته فلم يجدوه ، وما عهدناه يغلق الحانوت من الصباح إلى المساء ، وأرى أن تذهب إليه وتقتعه بترك ما أقدم عليه ، وتريه طريق الصواب قبل أن يضيع عليه محمد عمله ووقته وثقة الناس به .

فابتسم الأسود ثم نظر إلى أبي سفيان قائلاً : « إذا كان الأمر جديراً بالاهتمام فآنت أقرب إلى سعد ، تستطيع رده أو تسلط عليه حمنة أمه ، أليست حمنة ابنة عمك يا أبا سفيان ؟ !

وسخر بعض الجالسين من أن يأخذ حديث محمد مأخذ الجلد ويشير كبير الاهتمام ، وصاح واحد منهم : « دعونا من ملوك الأرض هؤلاء ، فهل يظن محمد وعتيق وعلى وزيد بن حارثة أنهم سيملكون ما يغنيهم ، فضلاً عن ملك عريض أو صغير ؟ ! وضموا إليهم سعد بن أبي وقاص فلم يضيروا شيئاً . » فصاح أبو سفيان في اهتمام : « ونسيت عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبد الله ! ولا ندرى

مَنْ بعد ذلك ! . وعاد الرجل يصرهم عن هؤلاء الذين تابعوا محمداً  
وصاح في سخرية : « دعوهم يحلمون واتخذوهم وسيلة تزجون بهم الفراغ  
وتسهلون بها جسد الحياة ، فلا بد في كل مجتمع من أمثال هؤلاء المجانين  
يتفكك بهم الناس ويدبرون عليهم أحاديثهم إذا أثقلهم الجسد وكدهم  
العمل ، وسوف ينجلي أمر محمد ودينه وقرآنه عما انجلت عنه أمور الذين  
ادعوا النبوة قبله ، فلا تشغلوا أنفسكم به وبأتباعه ، ودعوا ملوك الأرض  
في خيالهم يملكهم الشرق والغرب والشمال والجنوب فإن الجنون فنون ، ولكن  
أخبروني هل تستطيعون أن تعرفوا كيف قسم هؤلاء المجانين بقاع الأرض  
بينهم ؟ .

وسر الخالسون لهذه الفكرة ، وساد صمت لم يدم طويلاً حتى قطعه  
بعضهم صائحا : « عثمان يناسبه عُمان » فضحك الجميع وصمتوا قليلاً  
ثم صاح آخر : « وسعد يناسبه فُرس » فأغمضوا عيونهم لأن الكلمتين  
ليستا على وزن واحد ، وأسرع آخر قائلاً : « سعد يناسبه مصر »  
فصاحوا جميعاً : « ولا هذه ! » ثم قال آخر : « وطلحة يناسبه قلعة »  
فانفجروا في الضحك ، وصاح بعضهم : « أية قلعة تعني ؟ فقال الرجل  
والضحك يهزه : « ضعوه في أية قلعة ؛ في بلاد فارس أو الروم أو مصر ،  
حتى أختار له لإقليميا يناسبه » فاشتد القوم في ضحكهم ، وصاح آخر :  
« وماذا يقال في ابن أبي قحافة ؟ لقد قلبت الأرض ظهراً لبطن فلم أجد

ما يناسبه « فصاحوا جميعاً : « دعوه في بلاد العرب ، في تباله أو كنانة ،  
أما ابن عبد الله فاجعلوه في بلاد الله !

وعلا التصفيق وارتفعت القهقهة ، واستمر القوم هذه السخرية ،  
وكان المطعم بن عدى قد أحضر معه بعض القسي ليصلحها ، فركبهم  
إلى حانوت سعد فوجده مغلقاً ، فذهب إلى بيته وسأل عنه فأبأته أمه أنه  
لم يعد منذ الصباح ، وأنها تعتقد أنه في الحانوت فما اعتاد أن يفارقه ، فابتسم  
قائلاً :

— أصبح لا يهمه إصلاح القسي ولا بيع السهام يا حمئة ! شغله  
الملك عن هذه الأشياء الصغيرة !

ولم يتمالك الرجل نفسه فانفجر ضاحكاً وأدار رأسه لينصرف ،  
فاستوقفته أم سعد صائحة :

— أين سعد يا مطعم ؟

— جئت أسأل عنه يا حمئة ، ولم أكن أظن أن الملك قد شغله ، حتى  
يترك حانوته وينصرف عن عمله !

— ماذا بك يا مطعم ؟ ! أى ملك تعنى ؟ !

— لا شيء يا أم سعد ، ولكن ابنك مرشح لملك فارس !  
وانفجرت شفتا أم سعد عن ابتسامة ساخرة ، ثم ذابت على شفيتها  
فقدت تذكرت أمراً ، وقالت في لهجة حادة :

— أجنون هو ؟ من الذى رشحه لهذا يا مطعم ؟ !

— النبي الحديد يا حمنة ، رشحه ورشح غيره ملك آخر ، هنيئاً لك يا حمنة ، ستصبحين أم الملك ، فأعدى نفسك لتخطرى فى الحرير ، تجرين ذبلاً طويلاً كذليل الطاووس على أبسطة العجم ، وخلفك مئآت من الجوارى الحسان رهن إشارتك ، وستركبين الهودج الراقص على ظهور القبيلة ، وتخرجين للصيد ، وتنثر عليك الورود ، أم ملك الفرس يا حمنة! وزفرت المرأة زفرة شديدة ثم صاحت فى غيظ :

— أجننت يا مطعم ؟ ! ماذا بعقلك اليوم ؟ !

— لا شىء يا أم الملك ! وكثيرات من مكة سيكن مثلك ، بعضهن فى بلاد الروم وبعضهن فى مصر وبعضهن فى اليمن ، وستتزاورن وتجمعن تلك البلاد المتفرقة المتحاربة ، وتقضين على النزاع النائر بينها اليوم ، ولكن إياكن والخلاف والتباغض !

وانخرط المطعم فى ضحك عال هز جسمه السمين هزات متتابعة ، وأم سعد تنظر إليه ولا تدرى ما يعنيه ، ثم لوى عنقه وسار مهتراً وهى واقفة تشيعه بنظرات الدحشة ، ثم أوصدت الباب وجلست تفكر فى هذا الحديث وفى مسلك ابنها الحديد ، وقفز إلى ذهنها ما سمعته من درة وهى تتحدث عن رؤيا الموبدان والخيل العراب والإبل الصعاب ، وهمت أن تستعيد درة هذه القصة ، لكنها أمسكت ، فقد استبعدت ذلك حين

روتها ، ولم تتصور أن العرب يملكون بلاد الفرس ذات الحول والطول . وكانت الفتاة حاضرة حديث المطعم ، قد غمرها السرور حينما سمعت فارس وملكها . وهمت أن تعيد على سيدتها الرؤيا ، لكنها آثرت أن تلوذ بالصمت حتى يعود سيدها ، فلعله يجعلو ما خفي من حديث المطعم .

## الإيمان

انتهت أم سعد على دقائق الباب فأسرت إليه قبل أن تصله درة ، فاستقبلها سعد باسم الوجه وحياتها قائلاً : «السلام عليك يا أماه» . فانتفضت المرأة صانحة : « أى تحية هذه اليوم يا سعد ؟! أين تحية الأصنام ؟! » فابتسم سعد لثورة أمه . وأيقن أنها عرفت أمره ثم قال في هدوء : « السلام يا أماه هو الأمان والرضا وعدم العدوان ، أليس تحية لطيفة يا أماه ؟! أليس السلام خيراً من عيم صباحاً وعيم مساء ؟! » . فصاحت المرأة في غضب :

— شىء جديد اتخذته العرب يا سعد ؟!

— نعم يا أماه ، جديد سمعته فأحببته ، وجرى على لساني لطيفاً رقيقاً ،

فرايت من البر بأمرى أن أسارع بإسماعها إياه !

فهزت المرأة رأسها وألقت على ابنها نظرة عنيفة ، ثم صاحت في

سخرية :

— لعله دعاء الملوك يا سعد !

— أى ملوك تعنين يا أماء ١٢

ولم تعجب المرأة وانتحمت جانباً من البيت ، وطلب هو الطعام وأخذ يأكل في لذة ، ويشكر لأمه حسن إعداد هذا الطعام ، وهي في دهشة لأن الطعام ليس فيه جديد عما اعتاد ، وما زال حتى شبع ثم نظر إلى السماء وصاح في خشوع : « الحمد لله الواحد الأحد رب السموات والأرض ، رب الكون العظيم » . وخفض بصره فوجد أمه بجانبه تنظر إليه في غضب ، ثم صاحت في قوة :

— أصبأت يا سعد ١٣

— بل آمنت يا أماء ١٤

— بل تركت دين آبائك وأجدادك ، وعزمت على ترك عملك إلى

خيال المجانين ، وأغلقت الحانوت وسرت وراء الخداع والأمل الكاذب ، أتظن أنك ستكون ملك القرمس ١٥ لقد غرك محمد ونخدعك ابن أبي قحافة .

وكم قبل محمد من حلق بهم الجنون فوق قصور من الذهب والياقوت ، وأفنوا حياتهم لم يصلوا إليها إلا في حدائق الخيال البانعة ، فلا تضع وقتك ، فلن ينفعك محمد ولا قرآن محمد ، كفى أن أغلقت الحانوت

منذ الصباح !

فابتسم سعد لأمه الملتهبة غضبًا ، ثم قال في هدوء :

— إنه الإيمان يا أماه ، يشرح الصدر ، ويذهب الغل ، ويساوى بين الناس ويعطف القلوب ، وأرجو أن يشرح الله صدرك حتى تجدى برد الإيمان على قلبك ، وتعيشى في الحياة في رحاب الله ، وفي الآخرة في رضوان الله يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، آمين يا أماه فما أحلى الإيمان وأجمله !

فصاحت المرأة في شدة :

— بل ستترك أنت هذا الدين ، وتعود إلى الأصنام التي عبدها آباؤك وأجدادك .

فابتسم سعد ثم قال في نبرات يملؤها العطف والرقّة :

— لن أتركه يا أماه ، وسأدعو الله أن يهديك ، ولست أود أن تبعد منك اللجنة العالية ذات القطوف الدانية .

فصاحت المرأة في غضب وسخرية :

صور لكم الوهم كل مستحيل ؛ في الدنيا بلاد فارس ذات الأنهار والقصور ، وفي الآخرة جنات عالية دانية القطوف ، خدعك محمد بخياله ، ولعلك تابعته لأنك قريب أمه !

— بل هو الإيمان يا أماه ! أليس القمر هو الذى كشف لى الظلمة

الحالكة فاهتديت بعد الضلال ؟ !

— أضغاث أحلام ! وستخضع لأمرى وإلا افترقنا يا سعد !

وأطرق سعد قليلا ، ثم رفع رأسه وقال فى صوت هادىء :

— سأترك لك البيت يا أماه إذا شئت !

— بل أنا التى سأترك لك الحياة يا سعد !

وصمت سعد قليلا ثم رفع عينيه إلى أمه فرأى صدرها يعلو بزفرتها

ويهبط ، فقال فى حنان :

— وتهون نفسك عليك يا أماه ؟ ! ذلك قتل للنفس ، وهو محرم ، فى

دين محمد .

— ولكنه ليس محرماً فى دين الأصنام يا سعد !!

— أرايت الفرق بين الدينين يا أماه ؟ ! دين يحافظ على النفس ،

ودين يجب الدماء ويهوى قتل الأبرياء ، سوف أمنعك من ترك الحياة

يا أماه لأنها مكان العمل الصالح الذى يؤهل للآخرة الناعمة .

وقاض الغضب بالمرأة فصاحت فى شدة :

— لا تكثر يا سعد فلن تستطيع منعى ، وسوف أصنع ما لا طاقة

لك به ، سأترك الطعام والشراب حتى أموت أو تعود أنت إلى دين الأصنام ،

فليس لى قدرة على سخرية قريش !

ترك سعد المنزل إلى الحانوت وأطرق يفكر فيما عزمته عليه أمه ،

ويبحث عن حل إذا استسلمت لشیطانها ، ومكث إلى الليل ثم أغلق

الحانوت وعاد إلى البيت فوجدها غارقة في حزنها، واضعة رأسها بين راحتيها  
فصاح في صوت رقيق :

— أين الطعام يا أماه ؟

— تحضره لك درة .

لم أعتد ذلك يا أماه ! أكرهت سعدا وحديث سعدي ؟ ! ألا تأكلين  
معي يا أماه ؟ !

ودعا بالطعام ، وأخذ يأكل أماهها ليثير رغبتها ، لكنها نهضت إلى  
مكان بعيد فترك المائدة ، وأوى إلى غرفته وأغلقها عليه

نهض سعدي قبل شروق الشمس ، وحاول أن يشفي أمه عن عزمها  
فوجدها صلبة لا تلين ، فخرج إلى الحانوت دون إفطار ، وكان على يقين  
أن كثيراً من القرشيات سيعلمن بأمرها ويسرعن إليها ، ويصورن لها هوان  
الموت بجانب عصيان الأبناء لأمهاتهم ، ففكر ألا يبرح المنزل حتى  
يحول بين أمه وبين هذا الشر ، لكنه رأى أن يغادر البيت حتى تجد  
أمه متنفساً في الحديث ، وربما سمعت من بعض العاقلات كلمات  
تزيل هذا الغضب ، ثم يعود إليها ويستخدم أساليبه الرقيقة لإرضائها حتى  
ترجع عما عزمته عليه .

وتقلب سعدي الحرفاء حتى انتصف النهار ، فلم ينهض إلى المنزل  
وظل حتى غابت الشمس وأحس بشدة الجوع ، وعرف أن أمه قد أحست

بمثل ما شعر به ، وأن هذا الوقت هو الذى يحسن فيه الحديث معها عن الطعام والشراب ، لعلها تجيب أحشاءها وتطرّد شيطانها ، فأسرع إلى البيت ووقف أمامها فى بشاشة ثم قال فى رقة وهدوء :

– كيف حالك يا أماه ؟

– لم أعد أمك ، فأنت على دين وأنا على دين !

– ديننا يدعو إلى المحبة وينهى عن القطيعة ، فهل تودين أن تعرفي شيئاً عنه ، فربما فضلته على الدين الذى لا يعيب الحصام ولا يكره الفرقة ؟ !

– لا أود ، خلّ دينك لك !

– لا بد للإنسان من البحث والتأمل يا أماه حتى يحكم على بصيرة !

– لست على استعداد للحديث معك حتى تزهب روحى ، وقد

أوصيت ألا تشيع أنت جنازتى .

وأمسك سعد برأس أمه وجعل يقبله مستعطفًا قائلاً فى حنان :

– ومن الذى يمنعنى عن تشييعك يا أماه ؟ ! لم أكن أظن شيئاً فى

الحياة يفرق بين قلب سعد وقلب أم سعد !

فدفعته المرأة عن رأسها صائحة :

– دينك هو الذى فرق بين قلب سعد وقلب أم سعد، إنك تريد

أن تكون ملك الفرس ، وأنا لا أحب أن أكون أم الملك .

— وماذا يضريك يا أماء ؟ !

— كفى سخرية يا سعد ، فقد امتلأ البيت منذ الصباح بنساء قریش  
جنن يهثن بذلك الملك ، حتى كدت أذبح نفسي لسخريتهن اللاذعة ،  
وقد أرسل خالك أبو سفیان امرأته تكيل هذه السهام إلى صدري ،  
فتمتع أنت بقمرك وملكك ، ودعني أشرب كأس الموت فهي خير عندي  
من كثوس السخرية ، اتركني أختني من الحياة ، حتى لا أشهد بقية  
المأساة التي ستحل بك أنت ومحمد وأصحاب محمد .

ولم تفارق النبي ابتسامته وتلففه وقال في هدوء :

— وما ذنب أحشائك التي يفتك بها الجوع ؟ وما ذنب الطعام  
حتى تقاطعيه ، ارحمني نفسك وكلني واشربي ، ودعيني في ضلالي إذا لم  
تطب نفسك بالإيمان .

فزفرت المرأة زفرة تكاد تلتهب ، وهزت رأسها في بطاء لأن الجوع  
قد نال منها ، ثم صاحت في نبرات متقطعة : « وتقول النساء في مكة  
أم سعد لم تستطع أن ترد ابنها عن غيه ؟ » واشتد بها الغضب وتمثل  
أمامها جماعة من النساء يسخرن من عجزها عن طي ابنها ورده عن  
طريقه ، وتكلفت أن تظهر قوية لم ينل منها الجوع ثم صاحت :  
« سأموت يا سعد ، سأموت وأترك لك نخزي الأبد ، سأصمك بعار لن  
ترفع رأسك بعده ، سأموت ويقول الناس إذا رأوك : هذا قاتل أمه ،

وليس عندي لك إلا إحدى اثنتين ؛ أن ترجع عن دينك أو تستعد لارتداء ثياب الخزي الذي يلفك ويلف عتبك إلى الأبد .

وحاولت المرأة النهوض فثقل عليها فجذبت نفسها بقوة . ثم سارت تترنح حتى بلغت مكاناً بعيداً ، وجلست قليلاً ، ثم نهضت مرة أخرى وسارت إلى غرفتها وأغلقت عليها الباب .

## أول المعركة

أقبل أبو سفيان بن حرب ذات يوم على منزل أبي وقاص والغضب يتفجر من وجهه ، وكان معه رجل معصوب الرأس بعصابة مبللة بالدماء ، فهبت أم سعد في دهشة لمنظره ومنظر رفيقه ثم صاحت في عجب :

— كيفيت السوء يا ابن حرب ! ماذا بك ؟ !

— ليس بي يا حمئة ولكنه أول المعركة !

— بين من يا أبا سفيان ؟ !

-- بيننا يا حمئة ! هذه جناية ابنك ، وعليك وعلى مالك بن وهيب

زوحك غرم هذا العدوان !

ونظرت المرأة إلى العصابة التي التصقت بقرار الجرح فزاد عمته

ظهوراً ، ثم صاحت في دهشة :

— جرح بالغ يا أبا سفيان !

— وجرح بالغ يا حمنة في قلوب قريش ، حفره محمد بن عبد الله وراح أتباعه يعمقونه ، وقد بدأ ابنك فشيح ابن خطل وأعلن بدء المعركة ! ومد ابن خطل يده ووضعها على العصابة فوق الجرح . وأخذ يمسح باليد الأخرى ما سأل من الدم على وجهه . وأبو سفيان يضرب كتمًا بكف والشرر يقذح من عينيه . يلتفت حوله كأنه يبحث عن ضالة في البيت . ولم تزد المرأة أن قالت في ابتسامة هادئة :

— وون الذي بدأ العدوان يا ابن خطل ؟

وقبض أبو سفيان أصابعه كأنه يتأهب لتسديد ضربات قوية . وضغط فكيه فصراً صريراً عالياً . ثم انفجر صائحاً : « أنحن في حكومة يا حمنة ؟ ! لم نأت إلا لتندرك وننذر أبا وقاص بالخطر اخدق بكما إن لم تكفنا سعدا عن عدوانه . وترداد عن الطريق الشائك الذي سار فيه مع الصابئين من أتباع محمد » . فزادت ابتسامة المرأة انفراجاً ثم قالت في هدوء : « هون عليك يا ابن حرب فسعد عاقل لا يبدأ بالسرم » .

— ولكنه بدأ يا حمنة !

— لست أظن يا ابن عم ، لكن سعداً لا يحتمل أن يساء ولا يصبر على أذى ، أذت تعرفه ومكة كلها تعرفه يا أبا سفيان !

ومدت المرأة يدها وربتت كتف ابن خطل قائلة : « أليس كذلك يا عبد الله ؟ » . وتأكد أبو سفيان من لهجتها أنها رضيت عن ابنها وتركته في طريقه ، فهز رأسه ثم صاح في سخرية : « أرضيت عن دين محمد يا حمنة ؟ ! كاد القوم يفتكون بابنك ، لكنهم تركوه من أجل خاله ! » فصاحت المرأة في غضب :

— وهل سعد ضعيف يا أبا سفيان ؟ ! فليحمد ابن خطل له أن اقتصر على شجته !

— أكان يقتله يا حمنة ؟ !

— ومن الذى كان يدفعه يا ابن حرب ؟ !

واشتد الغيظ بأبي سفيان ورفيقه ، وكاد يمد يده ليطش بابنة عمه ، لكنه تجلد ، وبجذب ابن خطل وهم بمغادرة المنزل ، فأسرعت أم سعد تخفف من ثورته ، وصاحت في ابتسامة رقيقة : « أغضبت يا أبا سفيان ! ؟ وهل يغضبك أن يكون ابن أختك شجاعاً يتمهر الخصوم ؟ ! لقد أخفيت عنى سبب هذا العدوان ، ولست أدري كيف أثبت لسعد خطأه ! ولعل الحادث قُص عليك فأخذتلك عزة قريش ! » ومدت يدها إلى رأس ابن خطل وأخذت تحمل العصا به وهي تقول في هدوء :

— وأين حدث ذلك يا ابن خطل ؟

— فى شعاب مكة يا حمنة !

— كانوا يصلون ؟

— كانوا يعبثون ذلك العبث الذى علمهم إياه محمد، يقومون ويجلسون ويرفعون أصواتهم بالسحر الذى لقنهم إياه .

— ذهبوا فى خفية يا عبد الله ؟

فرجع الرجل رأسه والمرأة تفك العصابة : ونظر إلى أبى سفيان ثم قال فى صوت نائر : « فى خفية عنى يا حمنة ؟ ! إنهم يحاولون الاختفاء، لكننا لم بالمرصاد أينما ذهبوا ! » . ونظرت المرأة إلى أبى سفيان ثم صاحت فى حزم : « أرايت يا أبا سفيان ؟ !! أفى ذلك عيب أو خطر ؟ ! قد آثروا ألا يراهم أحد ! »

— ولكن الناس يعلمون بأمرهم وسيكونون قدوة لغيرهم !

— ولا خطر فى ذلك يا ابن حرب ، كل امرئ حر فى رأيه ما دام لا يؤذى به أحداً .

وحملق أبوسفيان فى وجه أم سعد ثم صاح فى غضب :

— حر فى رأيه ؟ ! ظهر عليك سحر محمد يا حمنة ! كنت بيننا بطلة حين ثرت على ابنتك وتركت الطعام والشراب ، لكننا اليوم سنضمك إلى قائمة الضلال ، وقد فتحت قريش أعينها على شر محمد وأنصار محمد ، وستكونين مع ابنتك فى النيران التى سنوقدها لهؤلاء الصابئين !  
وحاولت المرأة أن تجيب أبا سفيان على هذا التهديد ، لكنه جذب ابن خطل وغادر المنزل يهدد ويتوعد .

## وراء البحر

صارت مكة في شغل شاغل بمحمد ودين محمد ، فلا يصبح الصباح حتى يسرع رؤساء قريش إلى المعركة المشتعلة بينهم وبين المؤمنين ، وتسير مواكب ساحرة تزحف المستضعفين إلى مواضع من الصخور تسوى عليها أشعة الشمس فتشعلها ، ثم يطرحون هؤلاء الضعفاء فوقها ، ويصبون عليهم سياطهم الملتهبة ، وثغورهم تفتّر سروراً بمنظر الدماء المتفجرة من أجسادهم ، وثغور أولئك المعذبين تفتّر سروراً بذلك التعذيب في سبيل الله ؛ وأصبحت الأبواب تدق على من خلفها من الضعفاء الذين لا ناصر لهم ، فيؤخذون كما تؤخذ زغب العصافير ، ويسحبون إلى تلك الصخور الملتهبة والسياط القاتلة ؛ وكانت أفواج كثيرة قد دخلت في دين الله من قريش ومن الأرقاء الذين رأوا في الإسلام خلاصاً من ذل الرق ، ووجدوه دين إخاء ومساواة لا فرق فيه بين عربي ولا أعجمي إلا بالتقوى ، وكانت درة قد آمنت بالرسول إيماناً خالصاً . وكلما آذاه قومه زاد اعتقادها في رؤيا الموبدان ، وودت لو تدفع الأيام فيأني ذلك اليوم الذي تقود فيه الإبل الصعاب الخيل العراب ، وتكون هي في موكب النصر والفتح ! .

أرى سعد إلى حجرتة ذات مساء وألقى رأسه بين راحتيه ، وأطرق يفكر في أمر هؤلاء القساة الذين سفكوا دماء المؤمنين ، وقاطعوا التجار منهم حتى كسدت تجارتهم ، وأخافوا وتوعدوا ، وسبح به الفكر فيما تنفتق عنه أذهانهم ، حتى انتبه على صوت درة تستدعيه إلى أبيه أبي وقاص ، فهب وفي عينيه بقايا ذلك التفكير العميق ، وسلم ثم جلس ، فنظر إليه أبوه في حنان ، ثم قال في صوت خافت :

— على أى شىء عزمت يا سعد ؟

— فى أى شىء يا أبتاه ؟ !

— ألم تعزم على الرحيل معنا ؟ !

— إلى أين يا أبتاه ؟ !

— إلى أين ؟ ! كأنك لم تعزم على الهجرة ! عزمت أنا وأخوك عامر

على الرحيل إلى الحبشة فاستعد لتهاجر معنا .

وصمت أبو وقاص ، وصمت سعد وفي عينيه دمعتان مترقرقتان ثم

قال فى صوت مخنق :

— وأترك رسول الله يا أبتاه ؟ !

وأعاد أبو وقاص النظر إلى ابنه ، ثم قال فى حنان : « رسول الله

مخوف برعاية الله ورعاية عمه أبى طالب ، ولن تستطيع قریش أن تصل

إليه ، أما نحن فأيديهم قريبة منا ، فقد نسوا كل قرابة ، وأنكروا كل

صلة ، ولن يرد جمعهم راد إذا اتجهوا إلينا !» . فقال سعد في ثقة :

— أتخاف الموت في سبيل الله يا أبتاه ؟ !

— لا يا بني ، ولكن رسول الله قد أذن بالهجرة ليحتفظ بأنصاره بعيداً عن أيدي هؤلاء الجبارين حتى يأتي أمر الله ، وقد علم رسول الله أن قلوب البقية قد تحجرت فهو لا بد مهاجر وتارك لهم مكة يا سعد ، هيا يا بني معنا فقد سبقنا كثير من المؤمنين واستعد الباقون ، هاجر عثمان بن عفان وامرأته رقية بنت رسول الله ، ورحل جعفر بن أبي طالب وامرأته . . . هيا يا سعد لنخفف عن رسول الله عبء التفكير في أمرنا ، ولتكون هجرتنا فرصة يخرج بها دين الله من مكة التي ضاقت به إلى آفاق الله الفسيحة ، هيا يا سعد فقد أذن الرسول ! .

وأطرق سعد واطمأن والده إلى أنه قد أقنعه ، وترقت دره ما سيقمره سيدها ، ولكن سعداً رفع بصره إلى أبيه وقد بللت الدموع وجنتيه . ثم قال في صوت مختنق بالعبرات :

— تصحبك السلامة يا أبتاه وفي رعاية الله ! أما أنا فلن أترك رسول الله ، سأظل معه ، سأحيا معه وأموت معه ! .

وأصبح الصباح والمهاجرون في طريقهم إلى البحر ، وسعد عند رسول الله يسمع آيات الله ويتلقى تعاليم الإسلام ، حتى إذا انقضى اليوم عاد إلى بيته ليستأنف يوماً جديداً بجانب الرسول . والمشركون ماضون في التنكيل

بمن تصل إليه أيديهم . يخترعون كل يوم شراً جيداً يلحقونه بالنبي وأصحابه ، ولكنهم لا يستطيعون أن يفكروا في قتله ، حتى كان ذات يوم تحسبوا أيديهم فألقوها قادرة على أن تمتد إليه . فقد مات عمه وناصره ، فأداروا بينهم أمراً يطفئون به هذا النور ، ويعيدون به مكة إلى ما كانت عليه من ظلام وضلال .

## أرض النخيل والزرع

جلس أصحاب رسول الله يستمعون آيات القرآن وعيونهم تفيض بالدمع مما عرفوا من الحق . ثم تعالي شهيق بعضهم ندماً على ما فرط في جنب الله وخوفاً مما قدم قبل الإسلام ، وانطلقت أفواههم بالاستغفار والتوسل إلى رب الكون ليصفح عما مضى ، ورسول الله يبشرهم بالفران والرحمة . ولم يكن هؤلاء المؤمنون يفكرون فيما جر عليهم إيمانهم من جوع بعد شبع وعرى بعد اكتساء ، بل كان همهم حماية رسول الله والوقوف بينه وبين السيوف التي توشك أن تمتد إليه ، بعد ما اخترق الإسلام الخواجز ووثب إلى يثرب ، واعتنقه كثير من أهلها وبايعوا الرسول على أن ينصروه ويدافعوا عنه كما يدافعون عن أنفسهم وأبنائهم ، ونظر رسول الله إلى أصحابه ذات يوم وقلب بصره في ثيابهم الممزقة وعيونهم الغائرة ، وأجسامهم

التي أضمرها الجوع وأنصاها العبادة ، ثم قال في ابتسامة لطيفة :

— إلى أرض النخيل والزرع أيها الصابرون ، إلى يثرب يا سعد !

وعلم سعد ابن أبي وقاص أنه الإذن بالهجرة فأطرق مفكراً ، وعرف الرسول ما يتردد في صدره فقال في حنان :

— حتى يشاء الله يا سعد ، لا تخف فإله خير حافظاً وهو أرحم

الراحمين .

كان الليل يلف مكة بردائه القاتم ، وجبالها ترتفع في وسط الظلام كأنها تراقب الغادين والرائحين ، وسعد يتسلل بأهله . حتى صار على ظهر الطريق إلى يثرب ، فأدار وجهه ليملاً عينيه من مكة ، ويصلهما بالمكان الذي لا يزال فيه رسول الله ، ثم وقف وهم أن يعود ويظل بجانب الرسول حتى يهاجر معه أو يموت دونه . فإذا بصوت رقيق يناديه :

— أين ياسيدى ؟! قد أذن الرسول والله حافظه !

— لكن أمراً خطيراً يتلجلج في صدور المشركين يا درة !

— ورعاية الله مباح لا ينفذ منه كيد المشركين يا سيدى !

ووقف سعد وألقى بصره في الأفق الممتد أمامه حتى بلغ سفح الجبل ، فخيل إليه أنه الجبل الرابض حول الكعبة وقد وقف يشهد سيوف المشركين وهي تنفذ ما بيت الكافرون للرسول فصاح في قوة :

— سأعود إلى مكة ، وسأرسل إلى الرسول ليأذن لي بالبقاء معه حتى يهاجر .

وهم سعد بالعودة ، لكن درة صاحبت متوسلة :

— قد أذن لك الرسول ياسيدي اليوم ، وأذن لغيرك قبلك حتى لا يبقى بمكة سواه فيهاجر مطمئناً على أصحابه ، وما دام هو في مكة فقريش في شغل به عن أنصاره ، وهكذا يصنع القائد الحكيم ، يكون أول من يتقدم وآخر من يجلو ، توكل على الله ، وما النصر إلا من عند الله ، ولا أظن الرسول يبطن بمكة ياسيدي !

ووقف سعد وأعاد النظر إلى مكة والدموع تملأ عينيه ، ثم لوى وجهه واعتدل في الطريق الشمالي سائراً إلى أرض النخيل والزروع ، يرفعه نجد ويخفضه وهد ، تسرع به الإبل وتبطن ، لا يعلم كم قطع ولا أين انتهى ، فقد كان جسمه يسير وقلبه في مكة حول الرسول ، حتى قارب المدينة فإذا بأصوات تنبعث من جانب الطريق في لطفة :

— كيف رسول الله يا سعد ؟ !

وقبل أن يتبين مصادر هذه الأصوات انطلق في سرعة :

— رسول الله بخير ! رسول الله في رعاية الله !

وكان الأنصار والمهاجرون الذين سبقوه يخرجون كل يوم مع الشروق إلى ظاهر المدينة ينتظرون الرسول ، فلما — رأوا سعداً صاحوا به وأسرع

المهاجرون يعانقونه ، وتقدم الأنصار يرحبون به ويعرضون منازلهم وأموالهم . ثم ساروا إلى المدينة وقضوا ليلتهم حوله يسألونه عن الرسول وهو يطمئنهم ، حتى إذا أصبح الصباح خرجوا يترقبون ، وما زالوا إلى أن أذن الله للمدينة بالخير فأقبل النبي مع صاحبه أبي بكر ودخل المدينة في موكب المحبة والإخلاص ، ونشيد رقيق يتردد من أفواه المؤمنين ، يرحب بالبدر الذي طلع عليهم من ثنيات الوداع ، وكانت درة تنشد معهم فياضة الفرحه ، قد امتلأ قلبها ثقة بتحقيق بشارة الرسول بعد ما أحبط الله كيد المشركين . وأصبح لدين الله وطن يحنو عليه ويأود عنه ، وصار في الجزيرة قوتان كبيرتان ، قوة الشرك الثائرة في مكة تود أن يهيا لها يوم التزال السريع فنضرب المدينة ضربة قاصمة ، وقوة الإيمان الرابضة في المدينة في شوق إلى لقاء المشركين وانتزاع أفئدتهم القاسية التي أخرجتهم من ديارهم وأموالهم ، وفي لطفة للقضاء على اليهود الذين امتلأت قلوبهم بالحقد والحسد ، وجأهروا بالعداء لمحمد ودينه وأصحابه .

كانت درة قد بلغت مبلغ النساء ، ورغب كثير من المسلمين أن تكون زوجاً له ، لأدبها وذكائها وشدة إخلاصها لدين الله ، لكنها كانت تعتذر كلما طلب أحد يدعا ، وتعلن لمولايها أنها عقدت العزم على ألا تتزوج . لأن في عبادة الله ما يشغلها عن التفكير فيما يفكر فيه أمثالها . وكان سعد لا يقتنع بهذا التعليل ، يوقن أن في صدرها شيئاً

يحول بينها وبين الرضا بمن تقدموا إليها . فجاورها ذات يوم في ذلك الرفض ،  
وقال لها وهو يحاورها مداعباً :

— قد اخترنا لك زوجاً من قومك يا درة !

فاغرورقت عينا الفتاة وزفرت زفرة شديدة ، ثم قالت في حزن :

— قد يكون هو يا سيدى ! ولكن كيف جاء ؟ ! وأين يكون ؟ !

وأسرعت الدهشة بسعد فصاح في لطفة :

— ومن يكون ذلك الرجل يا درة ؟ !

— ابن عمى يا سيدى ، عقدنا العقد صغيرين ، عقده أبى وأبوه

وأبى وأمه ، ورضيت به فأصبح رضاي عهداً لا أستطيع التحلل منه وإن

طلت الأيام !

فقهقه سعد قهقهة عالية ثم قال في نبرات رقيقة :

— عقد طفولة يا درة ! أترين أنه يستمر إلى اليوم ؟ !

— بل عقد صحيح ثابت يا سيدى ، برضا وإدراك وبصر !

وسر سعد باعتزاز الفتاة بنفسها ، وثباتها على رأيها وقال باسمأ :

— لكن ابن عمك إن وجد فسوف يكون غير مسلم ، والمسلمة لا تحل

لغير المسلم يا درة !

— أرجو أن يسلم يا سيدى ، فأملى كبير في تحقيق بشارة الرسول .

وصمت سعد قليلاً ، وصمتت الفتاة ، ثم قال في رفق :

— لكننا لا ندرى أين هو يا درة ، ولا نعرف متى نلتقى به ، ولا نستطيع  
أن نجزم بأنه لا يزال ينتظر كما تنتظرينه ، ولعله قطع الأمل من أفتالك  
بعد ما كبر ! فتزوج !

فازدحمت الدموع في عيني الفتاة ثم قالت في أمل :

— إنى لعظيمة الثقة بالله يا سيدى ! وإذا ما سارت الخيل العراب  
إلى فارس فسوف نلتقى به !

ولم يستطع سعد أن يحوها عن رأيها ، فصاح في دهشة لثباتها على ظنها :  
— وأنى لنا ببلادك اليوم يا درة ؟ ! ألا ترين القوى الصارخة من  
حولنا ؟ زئير في مكة ، وزئير في الجزيرة ، وعواء ينبعث من حصون اليهود !  
فهزت درة رأسها ومالت شفيتها بابتسامتها الرقيقة ثم قالت في هدوء :  
— كل ذلك سيخفت يا سيدى ، قد بشر الرسول ، وسيحقق الله  
بشارته ، ويحفظ دينه ، ويحرس قرآنه ، وستقرود الإبل الصعاب الخيل  
العراب ، فأبقى الزواج اليوم حتى أخوض المعارك بجانب الحق ، وسألتنى  
بأهلى وأنى بعهدى وإن طالت الأيام .

وطرق الباب فإذا برسول النبي صلى الله عليه وسلم يدعو سعداً في  
سلاحه ، فلبس درعه ، وتقلد كنانته ، وشد كفه على مقبض سيفه ،  
وأسرع مردداً في سرور :

— لبيك يا رسول الله ، لبيك يا رسول الله !

## الفى الحزور<sup>(١)</sup>

عاد سعد بعد غزوة مع رسول الله ، ولم يستقر به المقام حتى خرج في غزوة أخرى يحمل لواء الرسول ، ثم عاد ليخرج قائدا لسرية من سرايا التي أخذت تجوس خلال الجزيرة . والمشركون في مكة ناثرون يفكرون كيف يلتقون بمحمد ويطيحون بدينه ، ويريحون أنفسهم من المسلمين الذين اشتد بأسهم ، وأصبحوا يعترضون قوافلهم ويخيفون طرقهم ؛ حتى نادى المشركين مصارعهم ، وأسرع هاماتهم إلى سيوف المسلمين لتلقى جزاء العناد والكفر ، فقد خرج الرسول وأصحابه ليعترضوا قافلة لقريش كانت عائدة من الشام بتجارة عظيمة ، وعلمت مكة فأسرع في عددها وعددها لتنفذ القافلة . وتؤدب محمداً ، وتخدم جذوته قبل أن تشتد ، وسالت الأودية بجيشها الصاخب الغاضب حتى بلغ مكاناً قريباً من المدينة يسمى بدرا ، فالتحمت قوة الحق بقوة الباطل ، وتقدمت الفئة القليلة بسيوف الإيمان إلى الفئة الكثيرة المزهوة بالعدد والعدد ، وجال سعد ورمى بسهامه . ونظر الله إلى هذه السهام المندفعة بقوة اليقين ، وإلى تلك السيوف التي ترتفع مع اسم الله وتنخفض مع ذكر الله ، فثبتها

في قلوب المشركين ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وانتشرت رءوس  
الشرك على أرض بدر ، وامتدت أيدي المؤمنين إلى الباقين تقودهم أسرى  
كما تساق الأنعام ، ثم عاد رسول الله وأصحابه بالغنائم والأسرى ، يلفهم  
التكبير والحمد ، وعاد سعد إلى بيته فرحاً بنصر الله وبما أبلى في سبيل  
الله ، وأقبلت عليه درة تهنئه باقتراب وعد الله وتحقيق بشارة رسول الله ،  
وكان عليه حبة قديمة ملطخة بالدماء ، فخلعها في عناية ، ولفها نقياً  
محكماً ثم وضعها في حرز وربط عليه وصاح في سرور :

— احفظي هذه يا درة ، واجعليها معنا في الحل والترحال .

— وما هذه يا سيدي ؟

— شيء له أوان يا درة ، احفظيه حتى يحين أوانه .

وجلل مكة سواد قائم لما حل بعظماؤها الذين خلفوا قتلى في صحراء بدر ،  
وأسرى في المدينة ، وسار القرشيون بعضهم إلى بعض يتآمرون في خزي  
وحزن . ثم اتفقوا على أن يبادروا بالثأر ليستردوا ما حطم محمد من شرفهم ،  
وتفرق دعواتهم في الجزيرة محرضون القبائل ، ويخوفونها شر المسلمين ،  
ويشرونها على الرسول ودينه ، حتى جمعوا منها جموعاً كثيفة وأسرعوا بها  
إلى المدينة ، يحثهم الغضب ويدفعهم الغيظ والانتقام .

والتقى الكفر بالإيمان مرة أخرى على أرض أحد في ظاهر المدينة ،  
واندفع المشركون إلى المؤمنين في ضراوة ، لكن السيوف التي أطاحت

برءوسهم في بدر ، تقدمت إلى هاماتهم تحصدتها وتلقيها على أرض أحد لتطأها الأقدام وتفريها سنايك الخيل ، فولى المشركون يتحسسون صدورهم وأعناقهم ، وظن رماة المسلمين الذين يحرسون الجيش من الخلف أن المعركة قد انتهت فركوا مواقعهم وأقبلوا على الأسلاب والغنائم ، وأبصر المشركون ظهر المسلمين خالياً فالتفوا حولهم ورجع الفارون منهم ، ودارت المعركة حامية قاسية فتساقط المسلمون وتعالى صياح الكافرين ووجوهها هجومهم إلى الرسول ، ولكن أصحابه التفوا حوله في نطاق متين يتلقون عنه الضربات ويفدون به بأرواحهم ، وهو يشجعهم ويحثهم على الصبر ، وصوته يرتفع في قوة :

— أقدم يا سعد يا ابن أبي وقاص ! أقدم أيها الفتى الحزور !

يا ويل سعد إن لم يمّت دون رسول الله !

هكذا كان سعد يصيح وسهامه تنطلق إلى صدور المشركين ، ونداء رسول الله نشيد يسرع من أذنيه إلى قلبه فيلهب حماسه ، والرسول فرح به ، يرى مواقع سهامه فيشجعه ، ويناوله السهم بيده صائحاً به :

— ارم يا سعد ! ارم فأنت موفق ! ارم فذاك أبي وأمي !

يفدّني رسول الله بأبيه وأمه ؟ ! يا ويل سعد إن لم يمّت دون

رسول الله !

وهكذا أخذ سعد يصيح وسهامه تندفع ، والمشركون يبحثون عن

الرسول ، والمؤمنون يناضلون حتى ردوا عنه تلك القوة العاتية .

ورأى المشركون ما حل بالمؤمنين وأنهم ثأروا ليوم بدر ، فكفوا شامتين ثم انصرفوا مهلدين بعودة أخرى يقضون بها على المسلمين القضاء الأخير .

عاد رسول الله وأصحابه إلى المدينة وقد خلفوا في بطن أحد أعزة عليهم ، وذهب سعد إلى بيته يضمده بجراحه ، ويعد سلاحه ، ويتأهب لمواصلة الكفاح . فقد أمر الرسول بالخروج من الغد حتى لا يظن الناس بهم ضعفاً بعد أحد ، واستجاب له أصحابه وخرجوا إلى غزاهم ثم عادوا ظافرين ، ثم انطلقت جيوشهم في الجزيرة . تطلع عليها الشمس غازية وتغرب عليها منتصرة ، حتى فتحت مكة وحطمت الأصنام . وتؤكد العرب الأ قوة لهم أمام قوة الإسلام ، فأقبلت وفودهم من كل صوب تعلن الإيمان ، وتؤكد انضمام قبائلها إلى حوزة الجماعة التي وحدها الدين القويم ، وصارت الجزيرة كلها تكبر الله وتصلى له ، ثم سارت كتب الرسول إلى ملوك الأرض تدعوهم إلى دين الله وتبلغهم رسالة رسول الله . وتنذرهم بالحرب إن لم يستجيبوا لداعى الحق ، وطار بدرة الفرح فقد اقتربت الأماني وودت الآمال ، وبشرت الآفاق بانبعث الإسلام خارج الجزيرة ، وبدأ في خيال درة صورة الإبل الصعاب تقود الخيل العراب . لكن رسول الله قد نودى من السماء فاختر جوار الله ، وقام صديقه أبو بكر بالأمر بعده فشمم للعمل واستعد لنشر دين الله ، ولكن أمر المسلمين لم يلبث

أن انتفض ، وثارت الجزيرة تمزق الوحدة التي جمعها الإسلام ، وغدت المدينة في ذعر شديد ، واعتقدت درة أن أملها قد تحطم ويشت من رؤيا الموبدان ، وأذهلتها الصدمة فنسيت بشارة الرسول .

### أمير الجيش

نهض أبو بكر لحرب المرتدين . وعقد الألوية ووجهها إليهم ، فأخذت تضربهم بقوة الله حتى ردتهم إلى الجماعة . ثم أمر جيش اليمامة الذي هزم مسيلمة الكذاب في شرق الجزيرة أن يسير إلى العراق فالتقى بالفرس . وقل جمعوعهم الكبيرة وسار إلى الحيرة ، وكان الفرس في نزاع ، على الملك . فرأى قائد المسلمين أن يتقدم داخل بلادهم ويزيل دولتهم ، وأقبل إلى المدينة ليستأذن الخليفة . وكان أبو بكر مريضاً فاستمع إليه ، وود لو ينهض بنفسه يندب الناس إلى العراق ، ثم دعا عمر الخطاب الذي اختاره خليفة بعده . وأوصاه أن يكون أول عمل له تسيير الجيوش إلى فارس ، وألا يتمهل بعد أن يواريه التراب .

كان سعد بن أبي وقاص في بلاد هوازن القريبة من مكة ، عاملاً على الصدقات ، مهتماً بجيوش المسلمين المنتشرة ألويتها في المشرق والمغرب ؛ وكانت درة معه في تلك البلاد موزعة النواذ ، لا تدري ما انتهى إليه أهلها

في تلك الحروب الطاحنة ، تهم باستئذان سيدها لتلحق ببلادها فيحبس الكلام في فيها ، وسيدها يعلم ما يدور في صدرها ويشفق علينا ، ويعز عليه أن يرسلها مع بعض الذاهبين إلى تلك البلاد .

وكان أمر الفرس قد استقر لبنت من بنات كسرى تسمى بوران ، فسمرت لحرب المسلمين ، واستدعت قائداً كبيراً من قواد الفرس يسمى رسم وألقت إليه أمر البلاد وإنقاذها وطرد العرب منها ، ووضعت في يديه سلطاناً كبيراً حتى ينجح في مهمته القاسية ، فاختار قائداً ماهراً وجمع جيشاً كثيفاً خرجت الملكة لتوديعه واثقة من النصر ، ثم سار هذا الجيش في زهو يخترق المدن والقرى حتى بلغ المسلمين والتحم بهم ، لكن سيوف المؤمنين التي ذقت رقاب الفرس انقضت عليه ومزقته وقتلت قائده ، وتركت فلوله تعود لتخبر رسم بالخبر الحزين ، فاستشاط غضباً وأسرع بإرسال جيش آخر وقائد أمهر ، لكن المسلمين عرفوا مقاتل الفرس فزقوا هذا الجيش كما مزقوا سواه . وتركوا من بقي منه ليعود إلى رسم يشكو النيران الملتهبة في سيوف المسلمين وأسننة رماحهم ، ويوقع الجزع في القلوب وهو يفر مسرعاً شاكياً ، وانبعث المسلمون يخضعون البلاد ، واشتدت غاراتهم حتى بلغت المدائن عاصمة الفرس على شاطئ دجلة .

وكان الفرس لا يزالون يتنازعون على العرش ، لكن الخطر أيقظهم وعلموا أن الفرقة ساعدت الجيوش الغازية على النصر ، فاجتمع الشعب

وسار إلى المتنازعين صائحا مهتداً ، متوعداً المختلفين بالتمزيق إن لم يثوبوا إلى رشدهم وينبذوا الخلاف ، ويتعاونوا لإنقاذ البلاد .

ليس إلا واحد يجمع القوى المتنافرة ! ملك من أبناء كسرى ينضمون تحت لوائه ، ولكن أين ذلك الملك ؟ ! لقد قتل أبناء كسرى جميعاً في نوبة التنازع والخوف والشك !

واهتزت الرؤوس تنفض ما فيها من الأخبار ، وتذكر الأكاسرة وأبناءهم ، حتى عثرت على ولد في الحادية والعشرين يسمى يزدجرد كانت أمه قد أخذته عند أخواله فأقاموه ملكاً ، واجتمعوا على الطاعة له ، وأخذوا يستعدون يداً واحدة وقلباً واحداً لتخليص البلاد وطرد العرب .

وعلم قائد المسلمين بما أجمعوا عليه ، وكتب به إلى الخليفة عمر ، فلما وصله الكتاب صاح في ثقة :

يجتمعون أو يتفرقون ! والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب !

وسارت كتب عمر إلى عماله في الجزيرة ليندبوا إلى القتال كل قادر ولا يدعوا من له نجدة أو سلاح أو رأى إلا وجهوه إليه . فاجتمعت النجدات ، وماجت المدينة بالمحاربين الشجعان ، وخرج بهم عمر إلى مكان قريب من المدينة على طريق العراق ليسير بهم من هناك ، لكن أصحابه أشاروا عليه بالبقاء وإرسال قائد ماهر من أصحاب رسول الله ، فإن كان الذي يشتهي فهو الفتح ، وإن كان غيره أرسل قائداً آخر وظل بعيداً

عن المزائم يجند الجنود ويمدها بالرأى ، فافتنع عمر وجسع الناس وصاح فيهم :

— أيها الناس ! كنت عزمت على المسير معكم . لكن ذوى الرأى منكم صرفوني عن عزى وآثروا أن أبني بالمدينة أمدكم بالمدد والرأى . وأمرُ المسلمين شورى بينهم ، ليس لعمر ولا لغير عمر أن يستبد به . وقد رأيت ذلك الرأى ، وآثرت أن أقيم وأبعث رجلا ، فأشيروا على برسيل . وتلفت المسلمون يبحثون عن القائد الماهر الذى يقود المسنين أمام جيوش الفرس العاتية ، فإذا بكتاب إلى عمر من أحد عماله ، فقراه وسر بما فيه . وآثر أن يقرأه على الناس ليشد عزيمتهم ، وكان هذا الكتاب من سعد بن أبى وقاص ، بنىء الخليفة أنه انتخب له ألف فارس كلهم ذوو نجدة ورأى ، ولم يتم عمر الرسالة حتى انبعثت الصيحات فى قوة :

— وجدته يا عمر وجدته !

وصاح عمر يسأل من يكون هذا الذى وجدده ؟ فترددت الأصوات فى ثقة :

— هو الأسد عادياً ، سعد بن مالك ، خير من يقود جنود الله ويحيط بخطط الأعداء .

وهز عمر رأسه باسمه لأنه وجد الحل الذى أرضاه . ثم أسرع بالكتابة إلى سعد يستقدمه ، وكانت درة قد فاض بها الشوق لأهلها والحرف عليهم ، فجمعت شجاعتهما ودخلت على سيدها لتستأذنه فى المسير إلى العراق ،

فأرت في يده رسالة يطيل فيها النظر باسمها ، ثم رفع بصره فوجددها أمامه  
فزادت ابتسامته انفراجاً ، ثم قال في هدوء :

— ما ذا جاء بك الساعة يا درة ؟ !

— لا شيء يا سيدي ولكن !

وخانت الفتاة شجاعتها كما تخونها كلما همت باستئذان سيدها  
فصمتت ، لكن سعداً صاح بها في سرور :

— كنت سأستدعيك يا درة لأمر يهمك .

— خيراً يا سيدي وبركة إن شاء الله !

— هو ما جئت من أجله الساعة يا درة .

وبرقت عينا الفتاة ، ونظرت إلى الخطاب الذي في يده ، وظنت أن  
خبراً بجاءه من العراق فصاحت لطفة :

— وجدت أهلي يا سيدي ؟ !

فتأثر سعد وسمت قليلاً ، ثم قال في رفق :

— سنجدهم بإذن الله يا درة ! سنسير لنجدهم . فقد اختارني الخليفة  
قائد الجيش العراق . وسأذهب إلى المدينة لأتلقى أوامره ثم نسير من هناك .

وكان سعد يتم حديثه ودرة ذاهلة ، حتى استعادت شيئاً من ثباتها ، ثم  
انصرفت لتخبر من في البيت ليستعدوا ، وسعد يصيح بها في سرور :

— لا تنسى الجبة يا درة !

## سلاح فارس

أقبل سعد على المدينة النابضة بالحركة ، المهمة بإعداد الجيوش ،  
وأسرع إلى الخليفة ، وجلس ينتظر أمره فصاح به عمر في رضا :

— أجمع المسلمون عليك يا سعد !

— فضل من الله يا أمير المؤمنين ورضوان !

فأعاد عمر النظر إلى القائد الذي اختاره المسلمون لنزال الفرس ، ثم قال

في حزم :

— يا سعد بن مالك ! لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله

وصاحب رسول الله ، فإن الله لا يمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء

بالحسن ، وليس بين الله وبين أحد نسب إلا طاعته ، فالناس شريقتهم

ووضيعهم في ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية

ويدركون ما عند الله بالطاعة ، فانظر الأمر الذي رأيت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يلزمه فالزمه ، وعليك بالصبر واليقظة ، وتوكل على الله ،

وسر على بركة الله ، وما النصر إلا من عند الله .

وسار سعد يدفعه الشوق إلى لقاء جنود الشرك ، ودره في سرور ، كلما

لقيت سيدها ابتسمت صائحة : « البشارة يا سيدي ! » حتى قارب العراق

فعبأ جيشه ، ثم استأنف المسير حتى نزل بمكان يسمى القادسية ، على بحيرة وراءها مضيق من البر يفصل بينها وبين نهر الفرات ، ثم بعث سرية أغارت على الحيرة وغنمت كثيراً من الغنائم ومن بينها بنت مرزبان الحيرة ومعها عدد كبير من النساء ، فأسرعت درة إلى الأسيرات تنظر في وجوههن فلم تجد أحداً من أهلها ، فخلت بواحدة منهن وأخذت تحدثها عن القافلة التي خطفت منها صغيرة ، وعن بيت أبيها إياس بن عمرو ومكانته وعظمته ، فأطرقت المرأة تفكر ثم صاحت في دهشة :

— درة بنت إياس بن عمرو ؟ !

ففلاحت أنفاس درة ، وبرقت عيناها ، وفغر فمها في انتظار خبر عن أهلها ، لكن المرأة هزت رأسها وقالت في صوت مليء بالحسرة :

— دخلوا فارس يا بني . وكان معهم فتى لا هم له إلا البحث عن درة .

فأجهشت درة بالبكاء ، وأرسلت لأفكارها العنان ، لكنها تذكرت قوة المسلمين وعزم سعد وبشارة الرسول ، فعادت الثقة إلى نفسها ، ومسحت دموعها آملة أن تجدهم في فارس حينما تخوضها الخيل العراب .

كانت أخبار المسلمين وقوتهم وغاراتهم قد أقلت الفرس ، فاستقدم يزدجرد أعظم قواده رسم ، وكان هذا القائد يعتقد في الرؤيا ، وقد استيقظ صباح ذلك اليوم مفزوعاً مهموماً ، فقد رأى في نومه أن ملكاً من الملائكة قد

نزل من السماء ومعه محمد نبي العرب وعمر بن الخطاب خليفته ، ثم جمع ذلك الملك سلاح الفرس كله وختم عليه وأعطاه للنبي ، فأعطاه بيده لعمر بن الخطاب ، وخاف رستم أن تكون دولة الفرس قد دالت على أيدي المسلمين ، وتذكر ما كان الموبدان قد رأى في عهد كسرى أنو شروان ، وما منيت به جيوشه هو من هزائم قبل اليوم ، فزاد خوفه وعزم ألا يلتقي العرب بنفسه . وجاء رسول الملك يدعو رستم في ذلك الصباح ، وهو غارق في تفكيره ، فزاد همه ودخل على الملك متكلفاً ألا يبدو في شيء مما أهمه . لكن الملك لمح في وجهه بعض ما يريد أن يكتمه فصاح به :

— أرى عليك دلائل الأرق يا رستم ! أفضيت الليل تفكر في هذا الأمر انتافه ؟ !

— أى أمر يا مولاي ؟ !

— الأمر الذى أهم الفرس ، ولا أراه بجانبك إلا شيئاً يسيراً فهم أكثلك في ليلة !

فابتلع رستم لعابه ، وتكلف ابتسامة يشد بها على ما في نفسه ، ثم قال في هدوء :

— سيردهم أصغر قوادك يا مولاي فهم شيء تافه كما ترى ، وسأبعث إليهم من يأتيك برءوسهم فتعلقها بشروع الأشجار أو تلقها في جوانب الطرق فيبعث بها الأطفال !

فابتسم الملك وكان يعرف الخطر الرابض في سيوف العرب ، ويعلم أن رسم يعرفه ، ثم قال في هدوء متكلف :

— ولكن هوان الأعداء على مقدار من ينازلم يا رسم ، يهونون على قائد مثلك . ولا يقف هؤلاء إلا الخنك الماهر ، ألم ترهم قتلوا كثيراً من مهرة قوادنا ؟ ! وقد علمت أن أميرهم عمر بن الخطاب قد رمانا بقائد قوى ماهر يسمى سعد بن أبي وقاص ، وليس لمثله إلا أعظم القواد يا رسم ! فقال رسم وهو يتكئف العزم :

— سأرسل من ترضى عنه ويرضى عنه الجيش يا مولاي !

وتأكد الملك مما في صدر رسم فصاح في حزم :

.. هناك قائد واحد هو الذي يستطيع القضاء على هؤلاء العرب في جولة واحدة . ذلك القائد هو الذي سيرسل إليهم ، هو الذي سيلتقي سعد ابن أبي وقاص !

وصمت رسم وأطرق يفكر ، ولاحظ أمامه الرؤيا فاضطرب ، وخاف أن يلحظ الملك والوزراء اضطرابه فتناك متكئفاً التجلد :

— ليس عندي ما يمنع من الذهاب يا مولاي . لكني أرى أن أكون بجانبك ، أدير المعركة من بعيد ، وأرسل إليها الجيوش ، فإن انتصرت وإلا بعثت غيرها والرأي في الحرب أنفع ، والتأني خير من العجلة ، فيذهب الجيش بعد الجيش والقائد بعد القائد ، ولدينا الأعداد الكثيرة ، فنأخذ من

قواتهم شيئاً فشيئاً ، ثم نهجم على البقية الباقية إذا لم تفر وقلن العرب درساً لا يسونه يا مولاي ، وسأبعث الجالينوس ، فإن يكن لنا النصر وإلا بعثنا غيره ، حتى إذا لم نجد بدا صبرنا لهم وقد أنزلنا بهم الوهن ، ونحن في بلادنا وهم بعيدون عن بلادهم ، وإن أهل فارس لا يزالون يحترموني ما لم أهزم يا مولاي !

وانتظر الملك حتى أتم رسمه ثم صاح في حزم :

— أخائف أنت يا رسم ؟ ! أتظن أن في سيف العرب ناراً كما

يقولون ؟ !

— لا يا مولاي ولكنه الرأي !

— أنت مضطرب خائف يا رسم ! ولعلك رأيت رؤيا من تلك التي

تعتقد في صدقها ! أنت رجل نجوم ورؤيا لا رجل حرب وجلاد !

فاضطرب رسم لغضب الملك ، وحاول التجلد ، لكن رؤياه تمثلت له

فبدا اضطرابه ، وأراد أن يعيد على الملك القول لعله يقنعه بإرسال غيره ،

لكن الملك صاح في غضبة شديدة :

— ستهب أنت يا رسم ! لن يذهب غيرك لملاقاة سعد بن أبي وقاص

## أعطوا بأيديهم

أرسل سعد إلى ملك الفرس يدعوه إلى الإسلام قبل المعركة، واختار بعض أصحابه فساروا في سلاحهم يركضون خيولهم مسرعين إلى المدائن ، والناس في دهشة من عزمهم وملابسهم وخيولهم ، حتى بلغوا مقر الملك ، واستأذنوا عليه غير مهتمين بتلك العظمة المتمثلة في قصره الشامخ وما حوله من الجند والقوة، فعجب الحراس لجرأة هؤلاء العرب وطلبهم الأذن السريع على الملك الأعظم ، وأخبروا يزدجرد فاشتد به الغضب وهم أن يأمر بوعوسهم فنتظير حتى يكونوا عبدة لقائدهم ، لكن وزراءه أشاروا عليه بالإذن لهم والاستماع لحديثهم ، فربما أرسلوا يطلبون شيئاً من خير فارس ونعمة كسرى ثم يعودون إلى بلادهم وينتهي من شرهم ، فوافق الملك بعد إلحاح ودعاهم إليه .

دخل هؤلاء الرسل على كسرى في إيوانه الكبير ، بأيديهم سيوفهم ورماحهم ، وحولم الحراس من كل جانب ينتظرون إشارة الملك . حتى وقفوا أمامه فألقى عليهم نظرة ساخرة، ثم صاح في كبرياء ، والترجمان ينقل حديثه إليهم :

— من أنتم أيها العرب ؟ طالبو نعمة كسرى ! ؟

— بل رسل سعد بن أبي وقاص أمير الجيوش !  
 — ومتى كان للعرب جيوش وأمير جيوش ؟ !  
 — يوم هداهم الله وجمع كلمتهم أيها الملك !  
 وهز الملك رأسه ونظر إلى وزرائه ، ثم أعاد النظر إلى العرب وصاح  
 ساخرًا :

— وماذا تريدون ؟ لعلكم اخترتم قوتنا ، وعرفتم بأسنا ، واقتنعمم بخطأ ما  
 فعلتم فجئتم نادمين !  
 واشتد الغضب به فارتفع صياحه واستأذف قائلاً :

— ألأنا تشاغلنا عنكم اجترأتم على أرض الأسد ؟ ! لقد كنتم تلقبون  
 فارس بالأسد ، والأسد باق كما هو في عرينه يلتم من تسرل له نفسه أن  
 يقترب منه ! ولا زلنا في عجب مما دعاكم إلى هذا الجنون ! أتظنون راكبي  
 الجمال يغلبون كسرى صاحب الأفيال ؟ !  
 ودوى الإيزان بقهقهة الملك ثم قال ساخرًا :

— ولكن لعلكم جئتم تائبين مستغفرين ! وسنفكر في أمر هذه التوبة !  
 وسكت يزدجرد وانطلق أحد العرب في عزة :

— لم نجىء مستغفرين أيها الملك ، وإنما جئنا ندعوك إلى الله . وقد  
 بعث رسولنا إلى آبائك من قبلك يدعوكم إلى الإسلام ، فزقوا كتابه  
 واستكبروا واستهانوا بقرة الله التادرة ، وظنوا أن العرب المتفرقين لن يجتمعوا ،

ولكن الله جمعهم على الحق ، وجعلهم قرة سارت إليك لترشدك إلى الله فيكون لك ما للعرب .

فاصفر وجه الملك وتلاحقت أنفاسه ، وكاد يأمر بقتل هؤلاء الرسل ؛ والتفت إلى وزرائه فأسرع كبيرهم يبرجوه أن يصبر على هؤلاء العزب وإن أغلظوا ، لأنهم رسل لا يقتلون ولا يهانون ولا يتحدثون إلا بما أرسلهم به قائدهم ، ولا يجدر بالملك الأعظم أن يدنى نفسه من أمثالهم ، والأجدر أن يستمع إليهم فلعل في الرسالة ما يكشف خططهم أو يسر بعد هذه الغلظة ، فهدأ بعض من ثورة الملك ، ورضى بأن يستمع إلى باقى الحديث ، وأشار في كبرياء إلى متحدثهم فاستأنف قائلاً :

— لعلك أنكرت أيها الملك لهجتنا وظننت أننا اجترأنا عليك ؛ لأنك لا تدري أن ديننا لا يفرق بين ملك وسوقة ، وليس في الإسلام كبير ولا صغير ، كلهم فيه سواء لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى ، فإذا حادثت كما أحادث الناس فإنما أنفذ قواعد ديني ، وأزدي رسالة عاهدنا الله عليها ، وقد خرجنا لهذا أيها الملك !

ونظر الملك مرة أخرى إلى وزرائه ، ثم أعاد النظر إلى العرب وصاح في سخرية عنيفة :

— لهذا خرجتم ؟ ! لتساووا بين المذك والسوقة ؟ !

فقال العربي في حزم وثقة :

— لهذا ولكل خير أيها الملك ، خرجنا دعاة إلى الله لا نبغى إلا رضوانه ونشر العدل في هذه الدنيا الآتمة !

وقهقهه الملك ، ثم صاح في سخرية أضحكك وزراءه وجنوده :

— تقيمون العدالة في هذه الدنيا ؟ ! أقيموها في بلادكم وأبطلوا السلب

والنهب وعدوان بعضكم على بعض !

فابتسم العربي ساخرأ ثم قال في عزة :

— كأملك لم تعلم بما حدث في الأرض ! لقد أبطل دين محمد كل

ذلك ، أزال ما بين العرب من العداوة والبغضاء فأصبحوا إخواناً في الله ،

حتى إذا أدوا حق الله في أهلهم وجاءوا إليكم ليؤدوا حق الله فيكم ، ونحن

ندعوكم اليوم إلى هذا الدين ، فإذا أبيتم فأمر من الشر أهون من أمر آخر

شر منه وهو الجزية .

واشدد الغضب بالملك وهب واقفاً ثم هز سيفه صائحاً :

— أنتم تفرضون الجزية على فارس؟! لا كانت الحياة إذا وضع أمثالكم

علينا الجزية ! سترون أيها العبيد كيف تجترئون على كسرى وبلاد

كسرى ! مستأصلكم جيوشنا من فوق الأرض ! .

فابتسم العرب لثورة الملك وتهديده ، ثم صاح واحد منهم في ثبات :

— هذه هي الثالثة أيها الملك إذا أبيت الإسلام أو الجزية ، هي

الحرب التي لا تبتى منكم باقية !

فتحرك الملك إلى العرب ليطيح برؤوسهم ، وماج الوزراء لاجترأ ، هؤلاء الرسل على الملك ، لكن رئيس الوزراء أسرع يستعطف بزدجرد ، ويستمهله ، ويرجوه ألا يقتل الرسل ، فعاد إلى مكانه وهو يصيح في ثورة هزت الإيوان :

— سترون أيها المفرورون ! أبعثل هذه النصال التي في أيديكم تملكون فارس ؟ ! أبعثل هذه الملابس والعمائم تزيلون ذوى التيجان ؟ !  
ثم التفت إلى الحراس صائحاً :

— آتوني حمل تراب ! لا شيء لهؤلاء العبيد إلا ذلك التراب !  
فأسرع الخدم بحمل التراب ، ووقفوا ينتظرون أمر الملك ، وهو يقلب عينيه في وجوه العرب ثم صاح في شدة :

— احملوه على أشرف هؤلاء ، وسوقوه كما تساق البغال حتى يخرج من باب المدائن أمام الناس .

ثم التفت إلى العرب صائحاً :

— ارجعوا إلى صاحبكم المفرور سعد بن أبي وقاص ، وأخبروه بما رأيتم ، وأنى أرسلت إليه رستم الجبار يدفنه ويدفنكم في خنادق القادسية ، ثم يسير إلى بلادكم ويعلم العرب كيف يجترئون على سادتهم !  
ورفع الخدم الحمل ، فأسرع واحد من الرسل وأمال رأسه صائحاً في

سرور :

— ضعوه على عنق فأنا أشرف هؤلاء! ضعوه على عنق فأنا سيد هؤلاء.

وضع الخدم الحمل على عنق العربي والملك ووزراؤه وحراسه  
يقهقهون حتى خرج من الإيوان .

عاد رسم في ذلك الوقت من مركز قيادته ودخل على الملك فأخبره  
بأمر الرسل ، ولم يخف عليه إعجابه بشأهم وحسن جوابهم ، وأنه لا يزال في  
دهشة من أمرهم لأنه وجد أفضلهم أحققهم ، فقد حمل التراب على عنقه  
وسار في فرح شديد .

سمع رسم حديث الملك فانتسعت حلقته ، واصفر وجهه ، ثم صاح  
كالمجنون :

— ليس أحققهم ! ليس أحققهم ! ردهم ! ردهم !

فانطلق الفرس خلف العرب ورسم يصيح في حزن :

— ليس أحققهم يا مولاي بل كان أعقلهم ، فقد حمل أرض فارس  
إلى قومه ، وأعطيناها ترابها بأيدينا !

فقهقه الملك قهقهة عالية ثم صاح في سخرية :

— أهتمك أمر العرب يا رسم حتى توهمت ما لن يكون ! اقدف هذه  
الأفكار من قلبك واستعد للمعركة ، وتأكد من هوان خصمك يشتد عزمك  
وثق في النصر تجد النصر أمامك !

وخرج رسم يضرب كفا بكف ، ويتمنى أن يدركوا رسل العرب ،

لكنهم انطلقوا يسابقون الرياح ، ووصلوا إلى سعد والبشر يملاً وجوههم ،  
وأمامهم حامل التراب يحوطه بيديه في حذر ، حتى ألقاه بين يدي سعد  
صائحاً في سرور :

— أبشر يا سعد فقد جئنا إليك بأرض فارس ، فتوكل على الله وما  
النصر إلا من عند الله .

## الخوف

كانت درة في شوق للمعركة ؛ تود أن تنطلق جيوش المسلمين حتى  
تدخل المدائن فتلتقي بأهلها ، وكان رسم يبطيء في سيره حتى يياس  
المسلمون فيرحلوا دون قتال ، يحدث خالصاء باعتقاده في الهزيمة  
وبشكو لإكراه الملك إياه على الخروج ، فوصل القادسية بعد أربعة أشهر  
في جيش يسد الأفق ، به مائة وعشرون ألفاً مزودون بالسلاح والعتاد ،  
وخمسة وثلاثون فيلاً مدربة على الحرب ؛ ونزل مكاناً يشرف على المسلمين  
وأخذ ينظم أمره للقاء ، لكنه رأى مرة أخرى تلك الرؤيا المفزعة فهب عازماً  
على دعوة العرب للصلح ، وأرسل إلى سعد أن يبعث إليهم من يكلمهم  
ويكلمونه ، فرأى سعد أن يرسل إليه رجلاً واحداً حتى يحس بأنهم غير  
مهتمين به وبجيئته وأفياله ؛ وسار ربيعي بن عامر إلى مضارب الفرس .

جمع رسمَ العظماء والكبراء ، وجلس على سرير من الذهب ، وبسط البسط والتمارق والوسائد الموشاة بالذهب ، وتكلف الفرس كل ما يظهرهم في عظمة وقوة، حتى يعود رسول المسلمين مأخوذاً بما يرى ، ويصف لقومه ما شاهد فيدب الخوف إلى قلوبهم . وأقبل ربعي على فرسه وسيفه بيده قد لف مقبضه بخرقة قديمة ، فأخذ الفرس يتغامزون ويضحكون حتى انتهى إلى البسط وهمز فرسه ليسير فوقها ، فصاحوا به لينزل فلم يهتم بصياحهم ، وسار بفرسه على البسط الثمينة متجهاً إلى رسم في صدر المكان حتى اقترب ، فنزل وأمسك بزمام الفرس ، ومد يده إلى وسادتين من الحرير المطرز بالذهب فشققهما وأدخل فيهما زمام الفرس وربطه بهما . وقلوب الفرس تكاد تنفجر من الغيظ ، لكنهم آثروا إظهار الاستهانة بما يفعل . وطلبوا منه أن يلقى سلاحه فصاح في غضب : « قد دعوتوني ولم آتكم من تلقاء نفسي فأخضع لأمركم ، فإن قبلتم أن ألبى دعوتكم كما أريد وإلا رجعت » فصاح رسم في سخرية : « ائذنوا له أن يقبل في سلاحه . هل هو إلا رجل واحد ؟ » .

وسار ربعي إلى رسم يتوكأ على رجه ، يقارب خطوه ويضرب الرمح في البسط والتمارق فيمزقها ، حتى دنا من القائد فجلس على الأرض ، وركز الرمح في البساط ، فصاحوا به في سخرية : « اجلس أيها العربي على البساط ! ألا تعرفون البسط ؟ ! » فهز ربعي رأسه ونظر إليهم نظرات ساخرة

ثم قال في استهانة : « لا تحب القعود على زيتكم هذه ، ولا قيمة لها عندنا ! » . وقد صبر الفرس على هذا العربي الذي يسخر بهم ، وصاح رستم يسأله والترجمان ينقل الحديث :

— ماذا جاء بكم أيها العربي إلى بلادنا ؟

— جئنا لنخرجكم من الظلمات إلى النور ، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها ، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام ، وقد أرسل رسولنا بالحق إلى الناس كافة .

وأطرق رستم ولاحت له رؤياه فهز رأسه يقلب فيه حديث العربي ، ثم قال في هدوء متكلف :

— عرفت ما تريدون ، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه ؟

— نعم تؤخره ؛ فكم تحب أن يكون هذا التأخير ؟ يوماً أو يومين ؟

وكظم رستم غيظه لهذا التهديد ، ثم قال وهو يتكلف الهدوء : « بل ننظرونا حتى نكتب أهل ديارنا ورؤساء قومنا ، وذلك يحتاج إلى مدة طويلة ! » . فأسرع ربي يقول في حزم : « ليس ذاك ! إن مما سنلنا رسول الله وعمل به أئمتنا ، ألا نمكن الأعداء أكثر من ثلاث يرون فيها رأيهم ، فنحن منظر وكم ثلاثاً تختارون فيها واحدة من ثلاث : إما الإسلام وندعكم وأرضكم ، وإما الجزية فنكف عنكم وننصركم إذا احتجتم إلينا ، وإما الحرب في اليوم الرابع ، ولستنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع حتى تكون

أنت البادئ» . ونظر رسم إلى من حوله من القواد ثم قال في سخرية :  
« ومن يكفل لنا ذلك أيها العربي ؟ » فانطلق ربعي في ثقة : « أنا كفيل  
بذلك عن أصحابي » .

فاشدت الدهشة بالفرس وجعلوا ينظرون إلى ثياب هذا العربي وفرسه  
وسلاحه ، وتبادلوا النظرات في عجب أن يكفل هذا العربي قومه الذين  
يهددون فارس ، ثم صاح رسم في سخرية :

— أسيد أصحابك أنت ؟ !

— لا ، ولكن المسلمين كالجسد الواحد ، بعضهم من بعض ، يجير  
أدناهم على أعلام !

وصمت رسم وربعي ينتظر جوابه في ثبات ، وتبادل مع أصحابه  
النظرات ثم صاح في غيظ :

— انصرف أيها العربي وسرى ما يكون .

عاد ربعي يتوكأ على رمح ويحرق به البسط والطنافس ، حتى بلغ  
فرسه فحل زمامه من الوسادتين وقذف بهما في هدوء ، ثم ركب فرسه  
وانطلق رافعاً سيفه ، وعيون الفرس تتبعه حتى غاب عن أنظارهم ،  
فالتفت إليهم رسم صائحاً : « ماذا ترون أيها القوم ؟ أسمعتم كلاماً قط  
أعز وأوضح من كلام هذا العربي ؟ ! » فانبعثت الصيحات تعيب صبرهم  
عليه ، وتؤكد أن الرأي كان قتله حتى يكون عظة لغيره ؛ فصاح رسم :

« ولكنه يعرض أموراً جديرة بالبحث والتأمل ! » . فضح أصحابه وصاحوا في غضب : « معاذ الله أن نميل إلى دين هذا الكلب ! أما ترى ثيابه وسلاحه وفرسه ؟ ! » . فهز رستم رأسه مرات ثم قال في صوت مختنق : « لا تنظروا إلى الثياب ، ولكن انظروا إلى الرأى والقلب ! » .

دار الحديث واشتد الجدل ، وأشار الكثيرون بالمهجوم وفضل القليل التمهّل ، ثم اتفقوا على أن يطلبوا رجلاً آخر ، فربما يكون ذلك قد نقل إلى سعد ما رآه من أبهة ، فأخافه وعدل عن الحرب .

وفي الصباح كان حذيفة بن محصن يسير إلى معسكر الفرس في ذلك الزى الذى ذهب به ربعى ، بيده سيفه ، وتحتة فرسه ، حتى بلغ خيمة رستم فدخلها راكباً ، وسار فوق البسط حتى وقف أمامه ، فصاح به لينزل ، فابتسم حذيفة في سخريّة ثم قال في عزة :

— ولم التزول أيها الرجل ؟ ! ألا أستطيع أن أحدثك إلا فوق الأرض ؟ !  
لسانى طوع إرادتى ، وجنانى معى أينما كنت !

— ولم جئت ولم يجىء رسول أمس ؟ !

— ذاك رأى أميرنا سعد بن أبى وقاص ، فهو يجب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء ، وهذه نوبتى !

وقاص بالفرس الغضب وأخذ رستم يحادث حذيفة فيما جاء بهم وهو

يجيب بمثل جواب ربي ، فطلب منه إطالة المدة حتى يروا رأيهم ، فصاح  
حذيفة في قوة :

— لا ، ليس لكم إلا ثلاث من أمس !

وصمت رستم في غيظ وتبادل النظرات مع أصحابه ، ثم أشار إلى  
حذيفة بالانصراف ، فعاد رافعاً سيفه مسرعاً بجواده ، والفرس ينظرون إليه  
حتى توارى عن عيونهم ، فقال رستم لأصحابه في نبرات حزينة : « وبحكم !  
أما ترون ما أرى ؟ ! جاءنا رجل بالأمس فقلبنا على أرضنا ، وخرق بسطانا ،  
وحقر ما نعظم ، وأقام بفرسه على زيتنا وربطه بها ، وجاء اليوم هذا العربي  
يقوم على أرضنا دوننا ! » ، فعلت الأصوات واشتد الجدل في الهجوم  
أو التمهّل ، ثم اتفقوا على أن يطلبوا ثالثاً فرجوا العرب عن رأيهم  
في الحرب بعد ما سمعوا حديث من بعثوه .

وأرسل سعد إليهم المغيرة بن شعبة ، فأقبل عليهم وقد لبسوا التيجان  
والثياب المنسرجة بالذهب ، ومدوا بسطاً عريضة طويلة يسير فوقها القادم  
مدة حتى يصل إلى رستم في صدرها ، وعرضوا الأفيال والسلاح  
والخند ، وسار المغيرة على البسط في غير اهتمام ، حتى بلغ سرير  
رستم وجلس معه عليه في ثبات ، فانبعثت الصيحات : « أنزلوه !  
أنزلوه ! عربي لا يدري ! عربي لا يعرف الملك ! » وأسرع الفرس  
بجاذبونه وهو يصيح في غضب وسخرية : « ماذا أيها القوم ؟ ! قد كان

يبلغنا عنكم القول والرأى ، ولكنى لا أرى قوماً أسفه منكم ! إنا معشر العرب لا يستبد بعضنا ببعض ، فظننت أنكم مثلنا تسوسون قومكم كما نساس ، لكنى عرفت أن بعضكم عبيد لبعض ؛ وقد دعوتونى ، فكان الأجدد أن تعدوا لى أرفع مكان ! » . وضحك الفرس فى ألم وهم يوازنون بين ملابس هذا العربى وسلاحه وبين دقة كلامه وكبر قلبه ، ثم صاح به رستم :

— علمت أيها العربى أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من جهد فى بلادكم ، فهل ترضون بأمر إخاله يقنعكم ؟  
فقال المغيرة فى ثبات :

— ما جئنا لجهد أصابنا أيها الرجل ، ولكن اعرض أمرك !  
فقال رستم :

— نأمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم !  
فقهقه المغيرة فهقهه عالية ثم قال فى سخرية :

— ثم ماذا ؟ !  
— ثم نأمر لكل منكم بحمل من تمر !  
— ثم ماذا ؟ !

وأدار رستم عينيه فى وجه أصحابه ثم صاح فى سخرية :

— ثم ماذا ؟ ! ثم تنصرفون ، فإنى لست أشتهي قتلكم !

فإد المغيرة يقهقه ثم قال ساخراً :

— لقد ذاق عيالنا طعام بلادكم فقالوا : لا صير لنا عنه ،

فإذا ترى ؟ !

ففاض الغضب بالفرس ، وصاح رستم صيحة هزت المكان :

— إذن تموتون دونها !

ورد المغيرة على هذه الصيحة في قوة :

— يدخل من قتل منا الجنة ومن قتل منكم النار ، ويظفر من بقي

منا بمن بقي منكم !

وانبعثت صيحات رستم وجسمه يرتعد غضباً :

— لن ينفع فيكم غير السيف ! أنتم عبيدنا وتجترئون علينا ؟ !

والشمس ، لا يرتفع صبح غد حتى لا يبقى رأس منكم على كتف !

بلغ معداً فليستعد لسيف رستم ، وليعد عنقه ليسلمه بهامته في صباح

الغد إن شاءت النار !

## القادسية

ارتفع صباح الغد ، ورسم بين أصحابه يشير عليهم بمصالحة العرب فلم يستجيبوا له ، ورأى سعد بن أبي وقاص أن يعذر إليه قبل المعركة ، ويدعوه إلى ما هو خير من الحرب . حثناً للدماء وتفضيلاً للسلام ، وبعث إليه ثلاثة من أصحابه فدخلوا عليه في ثبات ، وتكلف هو أن يلقاهم في عدته وصاح بهم في ابتسام مصطنع :

— حسناً أيها العرب ! قد استبنتم الصواب ورجعتم إلى الحق !

— أى صواب وأى حق ؟ !

— ألم نجئنا لتخبرونا بعدولكم عن الحرب ! ؟

— بل جئنا لنبلغك أمر أميرنا سعد بن أبي وقاص ، وندعوك إلى ما هو

خير لنا ولك ، أن تقبل ما دعاك إليه رسله ، وتتق الله في قومك . ولا تكون اليد التي تهلكهم ، وليس بيننا وبينك إلا أن تعترد الشيطان وتجيئ إلى الإسلام .

وأطبق رسم أجنانه وقلب في رأسه كثيراً من الأفكار ، ثم قال في

سخرية ممزوجة بالحزن :

— كنتم أهل جهد وبؤس تعيشون في مشقة وضنك ، فكنا نحفظ

جواركم ونحسن إليكم ، فلما طعمتم طعامنا وشربتم شرابنا وصفتموه لقومكم ودعوتوهم إليه ، ثم جئتم بجمعكم فكان مثلنا ومثلكم كصاحب الكرم ؛ أتدرون ما صنع صاحب الكرم ؟ !

واعتمد رستم في مجلسه وغمر العرب بنظرة ملتهبة ثم استأنف قائلاً :

— كان لرجل كرم ذو سور عال ، فرأى فيه ثعلباً نفذ من فتحة في السور ، فلم يهتم به وقال : وما ثعلب ؟ ! لكن الثعلب انطلق بعد أن ذاق العنب ودعا لإخوانه الثعالب ، فأسرع صاحب الكرم إلى الفتحة وسدها وتمكن من الثعالب جميعاً فأبادها ، فارجعوا عن ديارنا ولا تكونوا مثل تلك الثعالب ، ولا مثل الذباب الذى يرى العسل فيقول : من يوصلنى إليه وله درهمان ؟ فإذا دخله نشب به وغرق فيه فيقول : من يخرجنى منه وله أربعة دراهم ؟ .

وصمت رستم وقد ظن حديثه أثر في العرب ، ورجا أن يجيبوه بغير الحرب ، لكن واحداً منهم صاح في قوة : « والله ما جئنا بلادكم نقصد الدنيا ونعيمها ، ولو كانت الدنيا ونعيمها مقصدنا ما بعثنا سعد إليك ، نخيرك وندعوك إلى الإسلام ، وما صبرنا عن الذى نحن فيه من لذىذ عيشكم حتى نموت دونه ، وليس لدينا إلا أن ندعوك بدعوة الإسلام » .

وارتفع صوت العربى أشد مما كان :

— ثلاث يا رستم : الإسلام أو الجزية أو الحرب ، وليس لك من الوقت غير قليل .

وأطبق رستم أجنافه ، وضغط فكيه ، وزفر زفرة ملتهبة ، ثم قال في حمرة :

— إذن ليس إلا الحرب ؟ !

فقال العرب

— نعم ليس لدينا إذا أبيت إلا قراع السيوف .

فصاح رستم هائجاً :

— إذن نلتقى غداً ، وسترون أيها المغرورون كيف اجترأتم على

سادتكم ، وستعلمون سيوف الفرس وأفيال الفرس .

ووجد سعد أنه قد أعذر ، ونادى في المسلمين ليأخذوا مواقعهم ، ودعا درة لتستعد بمن معها من النساء لإسعاف الجرحى ودفن الشهداء .  
 الليل عسكر الفرس وعسكر المسلمين برداء واحد لا يفرق بين الناس الذين فرق بينهم الكبر والغرور ، حتى أصبح الصباح وغمرهم جميعاً بنوره يناديهم إلى السلام والمحبة ، ويشرح للفرس آيات الله وقوته ، ويعيب مكابرتهم وعنادهم . وبدأ الفرس يتدفقون إلى أرض المعركة ويعبرون الجسر إلى المسلمين ، وجلس رستم في سريره وضربت عليه قبة عالية ، وجعل في قلب جيشه ثمانية عشر فيلا ، وفي الجانبين خمسة عشر

فيلا ، وفوق الأفيال صناديق تحمل الرجال .

وأخذ المسلمون مواقعهم ، ودوت أصوات قوادهم تحث على الصبر ، وتذكر بوعد الله وبما نال المسلمون قبل اليوم من رقاب الفرس ، وانبعث الشعراء والخطباء يهزون المشاعر ويثيرون الحماسة ، حتى تقدم الفرس والتحم الفريقان ، وأخذت سيوف المسلمين ترتفع بقوة اليقين ثم تنخفض على هامات الفرس فتشقها ، وجعلت رماحهم تصوب إلى القلوب فلا تخطئها ، لكن الأفيال اندفعت ترفع خراطيمها وتخفضها فأناخت خيول المسلمين ، واشتد الفرس خلفها يضربون ويقتلون والحيل هاربة ، فصاح سعد بالرماة ليضربوا عيون الفيلة فوجهوا سهامهم إليها ، واستدار آخرون خلفها وقطعوا أحزمة صناديقها فسقطت بمن فيها ، واشتد عواء الفيلة وجعلت تدوس الصناديق وتحطمها ، والفرس يلقون في المعركة بأفواج كبيرة والمسلمون منهمكون في جهادهم ، يخوضون في الدماء إلى رقاب المشركين ، حتى عاد الليل يلقي أريدته على الكون ، يود أن يحجز بين هذه السيوف ، لكن صليلها لم ينقطع حتى هدأة من الليل ، فراجع الفريقان .

أذن المؤذن يعلن اليوم الجديد ، وارتفعت أصوات المسلمين بالتكبير والحمد ، ثم أسرعوا بعد الصلاة يستعدون ، حتى ألفت الشمس أشعتها على الأرض الحمراء ، والجثث المكدسة ، والأشلاء المتناثرة ، والجرحى الذين يثنون بين تلك الجثث والأشلاء ، فأسرع المسلمون بنقل جرحاهم

إلى مواطن التمريض ، ودفن القتلى في أمكنة بعيدة ، ولم يبق إلا الجثث الفرس وجرحاهم ، تشهد بما بذلت سيوف المسلمين من عناء .

تقدم الجيش إلى الجيش ، وجالت الخيل تطأ الجثث فتفجرها ، والجرحي فتقتضى عليهم ، ولم تدخل القبيلة المعركة حتى تصلح صناديقها ، لكن العرب جاءوا بإبل وألبسوها براقع جعلت وجوهها مفزعة ، ودفعوها في وجه الفرس كما كانوا يصنعون بالقبيلة في معركة أمس ، فأرأتها خيول الفرس حتى ولت الأدبار ، وجالت سيوف المسلمين في أافية الأعداء ، حتى أقبل الليل فحجز بين الفريقين وباتوا على ما باتوا عليه بالأمس .

أشرق صباح اليوم الثالث على أكداس مكدمسة من القتلى والجرحي ، ثم أرسلت الشمس أشعتها على ألفين من المسلمين بين شهيد وجريح وعشرة آلاف من المشركين ، فأسرع المسلمون بدفن قتلاهم ونقل جرحاهم ، وبقيت رمم الفرس بين الصفيين تثير الجزع في قلوب المتقدمين منهم للنزال ، ثم التحم الفريقان واختلط أنين الجرحي بقعقة الحديد ، ودفع الفرس بالقبيلة في وجه العرب وتوقعوا أن تفر منها خيولهم ، لكنها لم تهتم بتلك الخراطيم التي عرفتها قبل اليوم ، فجعلوا يحثونها ويزجرونها فزحفت على كتائب المسلمين وفرقت بينها ، يقودها فيلان كبيران ، فصاح سعد بجنده بوجههم إلى الفيلين ويدعوهم أن يحملوا عليهما ، فوجهوا إليهما الضربات ، وقتلوا أحدهما ، وقطعوا خرطوم الآخر ، وفقشوا عينه ، فظل بعين

واحدة يصيح ويتخبط بين الصفيين ، يزرجه الفرس إذا اقترب منهم ، وينخسه العرب إذا جاء إليهم ، فولى وجهه إلى النهر وعبره ، والفيلة جميعاً خلفه ، والمسلمون يكبرون ، حتى وصلت الفيلة إلى الشاطئ الآخر واتجهت إلى المدائن .

فلت قدرة الله ذلك السلاح الذى علق عليه الفرس آمالهم ، وخلت السيوف بالسيوف ، وتنادى المسلمون بالصبر ، وثارت العواصف تشارك جند الله جهادهم فى سبيل الله ، وأثارت الغبار ، واقتلعت خيمة رستم وساوت بينه وبين الناس ، وكان الفرس يلقون إلى المعركة بأفواج بعد أفواج ، وسيوف المسلمين تحصد هاماتهم كما يحصد الزرع سنابل القمح . حتى اخترقوا قلب جيشهم وأوقعوا الجزع فى قلوبهم ، واتجهت العيون إلى كبير من كبراء الفرس يلتقى بنفسه فى الماء ، وجندى من جنود المسلمين يسبح خلفه حتى أمسك برجله وجذبه إلى الشاطئ ، ثم رفع سيفه وضربه ضربة شقته نصفين ، ثم ارتقى سرير رستم الذى انزاحت عنه الخيمة وصاح فى قوة :

— قتلت قائد الفرس ! قتلت رستم ورب الكعبة !

وتأكد الجيشان أن رستم قد لقي مصرعه فارتفع تكبير المسلمين ، وانهارت قوى الفرس فلاذوا بالفرار ، تاركين سلاحاً لا يحصى ، وغنائم لا تعد ، وألوفاً من القتلى والجرحى طعماً طيباً لسباع السماء وحوش الأرض .

وأقبل الناس على سعد يهتفونه بنصر الله . وأسرعت درة تذكره ببشارة الرسول ورؤيا الموبدان ، وتشير إلى الخيل العراب والإبل الصعاب ، ثم قالت في ابتسامة مليئة بالأمل :

— ويزدجرد ملكهم يا سيدى ؟ ! لا بد من القضاء عليه قبل أن يتجمعوا حوله !

فابتسم سعد وقد عرف ما تعنى ، ثم قال فى سرور :

— تعنين المدائن يا درة ؟ ألم تجدى أحداً من أهلِكَ فيمن أقبل علينا من فارس ؟ !

— لم أجد يا سيدى ، وإني لكبيرة الأمل فى عطف الله ، وأرجو ألا نصبر كثيراً على يزدجرد .

فقال وهو غارق فى نشوة النصر :

— سنتظر يا درة أمر أمير المؤمنين عمر ، وقد أرسلت إليه بالبشرى ، وجيوشنا كما ترين فى تعبثها الكاملة ، وسنسير عند الإشارة إن شاء الله .

## المدائن

قالت درة في اهتمام :

مضى شهران يا سيدى وأخاف أن يتجمع الفرس حول يزدجرد !

— نحن في انتظار إشارة الخليفة يا درة وكل شيء بأجل .

— ولكن ملاحقة العدو خير من التمهّل .

— وربما كان التمهّل أجلى يا درة !

ومضت درة تنتظر في لهفة وسعد ينظم أمره ، وقد كثر السلاح والخيل  
 مما خلف الفرس بالقادسية ، وأصبح المسلمون يتأهبون ليسيروا جميعاً  
 على صهوات الخيول ، حتى جاء أمر الخليفة فانبعثت الأصوات تهز  
 الأرجاء :

— الله أكبر ! نصر من الله وفتح قريب ! المدائن ! الإيوان !

وامتطى المسلمون خيولهم وقد رأى سعد أن يترك النساء والأطفال  
 بالقادسية ، لكن درة أقبلت تتوسل إليه أن يأذن لها بالمسير مع الجيش  
 لتتم الجهاد وترى بعينها تحقيق بشارة الرسول ، وتمتع قلبها بمنظر الخيل  
 العراب تجوس خلال فارس ، فقد ملأت الصورة خيالها منذ أن كانت  
 صغيرة ؛ وأحس سعد بما في صدرها من الشوق لأهلها والأمل أن تلقاهم

بالمدائن ، فأذن لها في المسير .

أسرعت الخيل بين القرى والحقول ، تشق الحدائق المتشابكة الأغصان الدانية القطوف ، وعبير الريحان وشذى الزهر يفوح ويملاً الأنوف فيكبر المسلمون وتصل الخيول ، ويسرع الفلاحون مستأمنين ، قد بلغهم عن المسلمين عفتهم وتقواهم وحزم قائدهم ، فلم تمتد أيديهم ولا عيونهم إلى شر منذ أن دخلوا تلك البلاد ، وعهدهم بجيوش الفرس ينهبون الأموال ويهتكون الأعراض ويفكون دماء الأبرياء في صلف وكبرياء .

وأقبلت جيوش الفرس تعترض المسلمين فزقوها مرة بعد مرة ، ولم يبق في غرب دجلة إلى أرض العرب إلا من صالح وأمن في ظل الإسلام ، حتى بلغ المسلمون المدائن الدنيا في غرب دجلة ، فوجدوها حصينة منيعة محتضنها سور شامخ نصب الفرس فوقه المجانيق ، وحفروا حوله خندقاً عميقاً ، فأفرج المسلمون شقة واسعة حتى يكونوا بعيداً عن مرمى القذائف .

ووجد سعد من يصنع له مثل هذه العدة القوية ، ونصب المسلمون عشرين منها على مرمى السور ، ووضعوا فيها الحجارة وشدوها إليهم ثم تركوها فانطلقت قذائفها تهز السور المنيع ، ووقف الفرس ينظرون في حيرة إلى هؤلاء المردة الذين يستطيعون كل شيء ، ويعزمون فلا يستعصى عليهم أمر ، ثم أخذوا يخرجون جماعات فتلقف سيوف المسلمين من تصل إليه ، وتلوذ الهبة بالسور ، حتى طال الأمد ، فخرجوا هبة واحدة وتبايعوا على

الصبر ، ونادى سعد فأنحدرت السيوف إلى رقاب الفرس ، واخترقت الرماح أفنتهم ، وأحس المشركون أن لا دافع لهذه القوة الجارية ، فولوا الأدبار وأغلقوا عليهم الأبواب .

وثارت مجانيق الفرس في غير وعى ، والمسلمون ينظرون إلى قذائفها الطائشة ، ويكبرون كلما ضربت الأرض دون أن تصيب منهم أحداً ، يفكرون فيما دعا الفرس إلى هذه الثورة التي لا تجدى ، ويرون أن وراءها أمراً يدبر ، حتى انتصف الليل فهدأت تلك المجانيق ، ولف المكان صمت عميق ، وقفز إلى ذهن سعد أن تلك الحركة كانت لتغطية انسحابهم من المدائن الدنيا إلى المدائن القصوى ، لكنه خشى أن يكون وراء هذا الهدوء خدعة فأخذه يفكر ، ثم انتبه على صوت قوى من فوق السور ينادى بالأمان ، وبصيح بأن الفرس قد فروا ولم يبق بالمدينة شيء ، فخاف أن يكون ذلك من تمام التدبير ، لكن الصوت استمر مؤكداً مقسماً حتى أشار سعد ، فانطلق المسلمون يتسلقون السور ثم انحدروا إلى المدينة فوجدوها خاوية ، ففتحو الأبواب وانبعث التكبير يهز التصور العالية والشوارع الفسيحة ، وأسرعوا إلى الشاطئ لكنهم وقفوا ينظرون ، فقد أخذ الفرس السفن والمعابر إلى المدائن القصوى .

كان الليل يلف النهر وما حوله بأردية الظلام ، لكن بناء شامخاً كان يتلألأ في الجانب الشرقي ، فتحدث بعض المسلمين إلى بعض ثم انطلقت

## الأصوات تهز جوانب الأفق :

— الله أكبر ! أبيض المدائن ! هذا ما وعد الله ، وصدق الله ورسوله .

ولم يهدأ التكبير حتى أشرقت الشمس ومدت أشعتها فوق النهر وضياءها بين القصور ، فبدا المكان كله يتلألاً والمسلمون يفكرون في العبور خلف الفرس ، لكن كيف يعبرون ؟ ! لا سفن ولا معابر ! أيخوضون النهر سابحين ؟ ! لكنها مجازفة غير مأمونة العواقب ! أيصنعون السفن والمعابر ؟ ! لكنها تحتاج إلى زمن يستعيد فيه العدو قوته ! فإذا يصنعون ؟ ! جعل سعد يفكر ويدعو الله أن يلهمه وجه الصواب ، حتى استيقظ ذات صباح ضاحكاً مستبشراً ينادى المسلمين بالركوب :

— إلى أين يا سعد ؟ !

— إلى المدائن القصوى . أذن الله بالفتح والنصر !

— وكيف والماء متدفق ، ودجلة يزجر ، والمد مرتفع ؟ !

— رأيت الليلة خيلنا تخوض الماء ونحن على صهواتها ، أليست الخيل

ماهرة في العوم ؟ ! لقد عزمنا على قطع هذا البحر الذي اعتصم العدو به ،

وقد هيا الله لنا السفن والمعابر !

وانبسطت أسارب المسلمين وصاحوا في عزم :

— وفقت يا سعد ! عزم الله لنا ولك على الرشد .

## الإيوان

كان الفرس يقفون على الشاطئء الشرقى من دجلة ، ينظرون إلى مائه المتدفق ، وشفاههم تنفرح عن سخرية من العرب الذين أعجزهم النهر عن اللحاق بهم ، والمسلمون على الشاطئء الآخر ينظرون ويفكرون .

وذات صباح مشرق ، وماء النهر يسرع من الشمال إلى الجنوب ، كان الفرس بجانبه يلقون بسخريتهم على الشاطئء الغربى ، لكن واحداً منهم رأى أشياء تتحرك فى الماء متجهة إليهم كأنها رعوس الخيل ، خلفها رجال جلوس يحملون الرماح والسيوف ، فصاح فى دلع :

— العرب ! العرب !

وقهقهه الواقفون معه ثم صاحوا ساخرين :

— ما لعينيك ؟ ! أين العرب منا الساعة ؟ ! سيموتون بغيظهم فى المدائن الدنيا ! وقد عرفوا أن بلادنا ذات الأنهار ليست صحراء ذات رمال تخترقها الجمال ! لن يتقدموا شبراً بعد اليوم !

— لكنها أشياء تشبه الخيل وفوقها ما يشبه الرجال !

— ليس إلا اختلاج أجفانك ووجيب قلبك ، وبقية مما لقيت فى

حصار المدائن الدنيا !

— ولكنها خيول ورجال ! حددوا أنظاركم !

وحدد الواقفون أنظارهم وقد اقتربت تلك الأشياء المتحركة في الماء ،  
ثم صاحوا في ذعر :

— الشياطين !

وقفزوا في النهر ليردوا مقدمة جيش المسلمين التي خاضت الماء  
أمامه ، فسدد المسلمون رماحهم إلى عيونهم فاخترقها كما تدخل السيوف  
أغمارها ، وأحس الفرس بالخطر فولوا في جزع حتى خرجوا من الماء  
تلاحقهم الرماح ، رأى سعد بن أبي وقاص نجاح الطليعة فكبر إيذاناً  
بالاقتحام ، فهزم المسلمون خيولهم فقفزت إلى الماء ، ثم سارت كأنها  
التماسيح الجائعة ، والمسلمون على ظهورها يتجاذبون الحديث ويذكرون  
الله ، حتى بلغوا الشاطئ الشرقي ، فخرجت الخيل تنفض أعرافها ،  
وتنشد بصهيلها نشيد السلامة ، والمسلمون يكبرون فيهزون الأرجاء .

صاح الفرس ساخطين جازعين يحثون قومهم على الفرار ، فأسرع  
النامس حاملين ما خف وغلا ، وفر يزدجرد بما استطاع إلى حلوان في  
الشمال الشرقي من المدائن ليلحق بعياله ، تاركاً ميراث الأجداد الذين  
جمعوه من دماء المظلومين وحقوق الجائعين والمحرومين في آلاف السنين .  
سار المسلمون إلى المدائن في طرق ممهدة تنتثر عليها أشعة الشمس من

خلل الأشجار الباسقة ، والزهر يضحك في جانبها يحيي جيش الإيمان ،  
ويعلن الفرحة بذهاب دولة الطغيان ، حتى دخلوا المدائن يهزون بتكبيرهم  
التصور الفسيحة الممتدة في أحضان الحماثل ، إلى أن بلغوا الإيوان  
فجلجلت الأصوات :

— الله أكبر ! الله أكبر ! هذا ما وعد الله ، وصدق الله ورسوله !

ودخل المسلمون قاعة كبيرة طولها مائة ذراع ، وعرضها خمسون ذراعاً ،  
مبنية بالآجر والحصى ، ذات سقف معقود قطعة واحدة ، ترفعه عمد من  
الرخام المحلى بالنقوش البديعة ، وقلوب المسلمين خاشعة ، وسعد ممتلىء  
العينين بالدموع ، يلقى بفكره عبر تسعة وعشرين عاماً ، حين بشر الرسول  
بدين الله ، والمشركون يسخرون منه ويرمون أصحابه بالجنون ، وحين كانت  
درة الصغيرة تقص عليه رؤيا الموبدان ، وقلبا ممتلىء بالأمل في توحيد العرب  
وفتح فارس ، وعودتها إلى وطنها مع الخليل العراب ، وحين كان كفار مكة  
يزفون المؤمنين في شوارعها مستهزئين بملوك الأرض ، ثم نظر إلى ما حوله في  
خشوع وهو يتلو قول الله تعالى :

— « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها  
فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » .

ثم سرح المسلمون عيونهم في جوانب الإيوان وصاح بعضهم :

كسرى على فرسه يقود جنوده ! اضربوه !

وشك بعضهم الحائط برماحهم فارتدت إليهم دون أن يسقط  
الفرسان ، فقد كانت المعركة صورة لكسرى أنو شروان تحت رايته  
الكبيرة ، يقود جيشه ويختال في ثيابه الزاهية ، أجاد الرسام صنعها حتى  
يرتاب من يراها في أنها معركة تتحرك ، ثم ارتفع الصياح في دهشة :

— عرش كسرى ! من الذهب !

كان يجلس عليه تحت هذه القبة المرصعة بالجوهر ، بجانب هذه  
المروحة الكبيرة المصنوعة من ريش النعام ، وحوله مجالس الأعوان والوزراء !  
طالما بغوا وتجبروا !

سبحان من أذل الطغاة وأخضع المتجبرين ! سبحان من قدرته فوق  
القدر وقوته فوق القوى ، سبحان من أعز وأذل ورفع وخفض ! سبحان  
الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر !

وما هذه الأفلاك والأجرام السماوية ؟ !

أرباب كانوا يعبدونها من دون الله ! لم تنفعهم نجومهم ولم تنقدهم  
من الله نارهم !

وصلى سعد بالإيوان صلاة الفتح ، وصلى المسلمون شكراً لله ، ونزل  
سعد بالقصر الأبيض ونزل المسلمون بالقصور الكثيرة ، وطار البشير إلى  
القادسية يستقدم من فيها ، ورجال سعد يجمعون الغنائم من الدور والقصور  
والمخازن .

الله أكبر ! ألوف لا نستطيع حملها يا سعد ! قناطير مقنطرة  
من الأموال !

الله أكبر ! قباب يا سعد مملوءة سلالا محتومة بالرصاص ، حسبنا بها  
طعاماً فإذا هي مملوءة بآنية الذهب والفضة !

سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

وألوف من البقر والغنم ! وقناطير من الأطعمة والأشربة تملأ المخازن  
الواسعة !

سبحان الله ! أعدوها ليظيلوا الحصار ! وما تشاءون إلا أن يشاء الله !

وهذا بعض ما أدركنا مع الفارين يا سعد عند جسر النهروان !

يا سبحان الله ! حلية كسرى ! ثيابه وخرزاته ووشاحه ، ودرعه  
المرصعة بالجواهر طالما سامى بها سلطان الله ! كل هذا كان للدنيا  
الفانية ؟ !

وأخذ سعد يقسم هذه الغنائم بين المسلمين ، ويستبقى قسم بيت المال  
ليرسله إلى الخليفة في المدينة ، حتى جاءوه ببساط مربع منسوج قطعة  
واحدة طوله ستون ذراعاً كأنه الروض في الربيع ، أرضه من الحرير  
فوقها النبات المنسوج بالذهب ، له نوار من الذهب والفضة ، والماء يجري  
والطيور تغرد ، لا يشك من يراه أنه من صنع الطبيعة التي تتألق وتجدد ،  
فنظر سعد إلى هذا البساط ثم التفت إلى سلمان الفارسي وأبتسم قائلاً :

— ولم كل هذا يا سلمان ؟ !

— هذا شيء ثمين عندهم يا سعد ، لو استطاعوا حملة ما تركوه ، كانوا يعدونه للشتاء حين تقفر الرياض من الأزهار ويتغير وجه الأرض ، فييسطونه إذا أرادوا الشراب ويشربون عليه ، كأنهم في روض يانع ، فيتم السرور وتكمل المتعة كما يصنعون أيام الربيع .

وهز سعد رأسه وأطرق يفكر كيف يقسمه ؟ وكيف يعدل بين الناس في قسمته ؟ ثم رفع رأسه وصاح بالمسلمين :

— هل لكم أن تطيب أنفسنا عن أربعة أخماس هذا التقطيف فنبعث به كله إلى عمر يضعه حيث يرى ، وهو عندنا قليل ولكنه يقع من أهل المدينة موقعا يسر ، ويصور لهم بعضاً من ألوان هذا الفتح الجديد ؟  
وارتفعت الأصوات في رضى :

— ها الله إذاً ، رضينا فاصنع ما تشاء .

وكانت درة تبحث عن أهلها وتسال من عاد إلى المدائن بعد أن استقر أمرها ، ولم تترك منفذاً ترى فيه بصيصاً من النور إلا ذهبت إليه ، وأسرع من في القادسية إلى المدائن وسكنوا الدور والقصور فرحين بنعمة الله ، وعاد رسول عمر يصف لسعد فرحة المدينة بالنصر وبما آفاه الله من الخير ، ويبلغه أمر عمر بتوليته ما فتحه من تلك البلاد .

وذات يوم دخلت درة على سيدها محزونة فصاح بها باسمها :

— لم تجديهم يا درة ؟ ! أفروا مع يزديجرد ؟ !  
 — وليس يزديجرد ببعيد عن سيفك يا سيدى ! أأنت عازماً على  
 اللحاق به ؟ !

### عودة

وصل سعد ما بين المدائن القصوى والمدائن الدنيا ، ونهض ينظم  
 أمور البلاد وينفذ فيها قوانين الإسلام ، ودره دائبة البحث عن أهلها حتى  
 عثرت على من أكد لها فرارهم مع يزديجرد ، فأخذها العجب إذ  
 كان الأجدر بهم وهم عرب أن ينضموا إلى المسلمين ، ويحاربوا الفرس  
 الذين طالما استبدوا بأهل الحيرة ، لكنها تذكرت أن أمها فارسية فقد  
 تكون أثرت على أبيها انتصاراً لقومها ، وقد تكون العوائق حالت بينه وبين  
 الاتصال بالمسلمين ، ولم تقطع درة الأمل في اللقاء بهم ، وودت لو يسير  
 سيدها إلى يزديجرد وتسير معه .

علم سعد بعد الفراغ من المدائن أن الفرس يتجمعون بمكان في  
 الشرق ، كما يتجمعون في تكريت ذات القلعة الشامخة في الشمال ، فبعث  
 إليهم جنده ودارت المعارك الطاحنة ، ثم أقبلت الغنائم من تكريت ورسل  
 قائدها ينشدون قوله في نشوة النصر :

ونحن قتلنا يوم تكريت جمعها      فله جمع يوم ذاك تتابعوا  
ونحن أخذنا الحصن والحصن شامخ      وليس لنا فيما هتكنا مشايخ

ثم لحقت بهم غنائم الشرق ، ورسلها يصفون ما جمل أرض المعركة  
من دماء الأعداء حتى سمو مكانها « جلولاء الوقية » ينشدون قول قائدهم  
في فرحة الانتصار :

ويوم جلولاء الوقية أفنيت      بنو فارس لما حوتها الكتائب  
ويتحدثون عن ألوف الفرس الذين لاقوا مصارعهم ، ويخبرون سعداً  
بفرار يزدجرد إلى حلوان .

وأقام العرب في تلك البلاد بعيدين عن المواطن التي نشوا فيها والأجواء  
التي نبتوا بينها فتغيرت ألوانهم ، ولح عمر هذا التغيير في وجوه الوفود التي  
تقدم عليه من تلك البلاد، فأشار بإنزال العرب في موضع يلائم ما اعتادوا،  
فارتاد سعد مكاناً غربي الفرات واختط به مدينة الكوفة ثم نادى بالمسير  
إليها . وكانت درة مشغولة بأهلها، تود أن تسير إلى الشرق لا إلى الغرب،  
لكنها لم تكن كبيرة الثقة بما سمعته عن فرارهم مع يزدجرد إلى حلوان،  
فسارت إلى الكوفة آملة أن تجد مزيداً من الأخبار ، حتى يعزم سيدها  
على المسير إلى الشرق .

أقام سعد بالكوفة ، وجيوشه تتعقب الفرس ، وهو يمدها ويدير ما  
فتحه من البلاد ، حتى كان صباح يوم دخلت عليه درة بادية الدهشة :

— ماذا يا ذرة ؟ ! أعثرت على جديد ؟ !

— عجبٌ يا سيدى ! يؤكد آخرون أنهم أسروا في بعض المعارك !

— لكننا بحثنا جميع الأسرى يا ذرة !

— يزعمون أنهم أرسلوا إلى المدينة يا سيدى !

وهز سعد رأسه ، وألقى ببصره بعيداً ، ثم قال في هدوء :

— وددت يا ذرة لو عدنا إلى المدينة لنقيم بجوار رسول الله !

وانقضى ثلاثة أعوام ونصف ، وسعد بالكوفة محمود السيرة ، دائب

النشاط مرضى العمل إلا من بعض الخاقدين الذين لا يخلو منهم مكان

في الأرض ولا يرضيهم قاسم ولا عادل ، ودره مبجلة الفكر متطلعة إلى

المدينة تود أن يهيء الله سقراً إليها ، ويزدجرد يجمع الفرس ، والمسلمون

يستعدون لهم ، لكن الخليفة أرسل إلى سعد يستدعيه ، فأمر أهله أن

يستعدوا ، وصاح بدره يذكرها بالحبّة ، ثم ساروا إلى المدينة .

لم يعد سعد إلى الكوفة ، وظل عامين بجانب رسول الله يحدث في

مسجده بما سمعه منه في صحبته الطويلة ، ويشير على عمر في أمر الجيوش

التي تبطش بالفرس كلما تجمعوا ، والمدينة تموج بالناس من جميع

البقاع ، وتمثل دولة الإسلام الممتدة في الشرق والغرب ، ويستتر فيها بعض

الخاقدين الذين يتحينون الفرص لينالوا من الإسلام وأهله ، وكان خنجر

فارسمى من خناجر أولئك الخاقدين بعد لعمر بن الخطاب أمير المؤمنين

حتى طعنه طعنات لم يرج منها البرء، فاضطجع في فراشه يستقبل النهاية ، ولم ينس أن يوصى المسلمين بدين الله وسنة رسوله، وأن يجعل أمر الخلافة بأيديهم ، يختارون لها من يرضون عنه ، لكنه قصر هذا الاختيار على بعض أصحاب رسول الله من بينهم سعد بن أبي وقاص ، ثم صاح قبل أن يفارق الدنيا :

— أشهد الله أني لم أعزل سعداً عن خيانة أو سوء ، وأوصى من يعدى بالاستعانة به إن لم يكن هو الخليفة .

فكر سعد في هذه الدولة الممتدة الأطراف في الشرق والغرب ، وفيما سילاق الخليفة بعد عمر ممن فتحوا عيونهم على الدنيا ، فأخرج نفسه من الشورى ، وبعد عن الخلافة راضياً وإن شارك في اختيار الخليفة الجديد ، ثم اجتمع المسلمون يقبلون وجوه الرأي حتى انتهوا إلى اختيار عثمان بن عفان ، فدعا عثمان سعداً إليه ثم قال :

— استعد يا سعد فقد وليتلك الكوفة وأنت بها خبير .

— لكني آنس " بجوار رسول الله يا عثمان !

— إنها وصية عمر يا سعد ، وهذه أعباء تلقى على القادرين ، واجب

لا بد من قبوله !

وكانت درة تود لو عادت إلى الكوفة أو المدائن ، بعد أن يشمت من جديد عن أهلها في المدينة ، فاشتد بها الفرح حين علمت بعزم سيدها

على العودة إلى تلك البلاد التي دخلوها في طليعة المؤمنين ، وسارت معه ثم استأنفت بحبها ، لكن حيرتها ازدادت حين عثرت على من أكد لها ذهاب أهلها إلى المدينة ، وأنهم إن لم يكونوا بها فهم لا ريب في مكة أو في بقعة أخرى من بقاع الجزيرة الواسعة ، وفكرت في استئذان سيدها في الحج إلى بيت الله الحرام ، وكان قد مضى على عودتهم إلى الكوفة عام وبعض عام ، لكن سيدها عاد ذات مساء إلى البيت يأمر بالاستعداد للرحيل فقد أعفاه عثمان من الولاية ، وأسرعت درة مع الركب يدفعها الأمل الذي لا يفارق صدرها وإن طال به الأيام .

كان على ثمانية أميال من المدينة واد يانع كثير الحدائق يسمى وادي العتيق ، تقوم في جوانبه قصور عالية ودور فسيحة أقامها أصحاب رسول الله منذ ولي عثمان ، فبنى سعد بذلك الوادي قصراً على الشرفات فسيح الجوانب ، وأقام به ، يتردد على المدينة ، ويزوره فيه أجبائه ، ويتمتع فيه بالهدوء بعيداً عن زحمة المدينة وأعمالها ، وكان الحاقدون على الإسلام قد بدءوا يشيرون الناس على عثمان يمزقوا الوحدة التي جمعها العدل ، وظلوا ينفخون في ضرام الشرابي عشر عاماً ، وعثمان يتقلب بين سخط الساخطين ورضا الراضين ، حتى اشتعلت النار وامتدت أيدي المسلمين إلى خليفتهم عثمان فقتلوه ، وارتفعت رءوس الطامعين واحتدم النزاع ، واحتكم المسلمون إلى السيف ، وأبصر سعد هذا الشقاق فأحزنه وقد شهد الأمة العربية وهي

تجتمع ، والقبائل النافرة والإسلام يحتضنها حتى بناها دولة عزيزة منيعة ،  
فأثر أن يعتزل هذا الشر ، ولزم قصره بالعقيق ، وأمر أهله ألا يخبروه  
بشيء حتى تجتمع الأمة على إمام، وإن كانت بعض العيون تنظر إليه ،  
وتود أن يدخل الميدان ويدعو لنفسه معتقدة أنه أحق بالخلافة .

وذات يوم استأذن عليه هاشم بن أخيه وكان بطلا من أبطال الشام  
وفارس ، ودخل غاضباً ، فقرأ سعد ما في وجهه ثم قال باسمًا :

— خيراً يا هاشم ! اتفق الناس على إمام ؟ !

— وماذا يهملك يا عمه وقد اعتزلت وآثرت السلامة ؟ !

— وهل في ذلك عيب يا هاشم ؟ ! أليس من حق الإنسان أن يؤثر

السلامة ؟ !

— لكنك خلقت للجهاد والعمل ، ولا أدري كيف تصبر على هذا

الأمر ؟ ! أأنت أحد الذين بشرهم رسول الله بالجنة ؟ ! ألم تكن أحد

الذين اختارهم عمر للخلافة ؟ ! أأنت أحد الذين قبض رسول الله وهو

عندهم راض ؟ ! ألم تكن الفتى الجزور الذى فداه رسول الله بأبيه وأمه ولم

يفد بهما أحداً غيره ؟ ! أأنت صاحب أول دم أريق في الإسلام ؟ !

أستكثر على نفسك الخلافة ؟ !

وانتظر سعد باسمًا حتى أتم ابن أخيه حديثه الثائر ، ثم قال في هدوء :

— هون عليك يا هاشم فقد أبصرتها من بعيد ، لاخير فيها يا هاشم ،

إنها عبء ثقيل !

— أخائف من أعبائها وأنت من يحمل الأعباء الثقال ؟ !

— ليس اليوم يا هاشم ! لا يدري المرء من له اليوم ومن عليه ،  
ولكنني أقبلها بشرط يا هاشم ،

وتهلل هاشم ؛ وقد ظن أنه أقنع عمه بالخروج من عزلته ثم قال في سرور

— مر يا عماه ! أى شرط تريد ؟

— أن تحضر لى سيفاً يا هاشم .

— الأسياف كثيرة يا عماه ، وسيفك مشهور معلم ، وحولك كثير من

الأسياف والرماح !

— سيفاً غير هذه السيوف يا هاشم ! أريد سيفاً يعرف المؤمن ويميزه

من الكافر ، إذا ضربت به الكافر قطع ، وإذا ضربت به المؤمن لم يقطع !

أتستطيع أن تجيء بهذا السيف يا هاشم ؟ !

وأدرك هاشم ما يعنى عمه وأنه لا يستطيع أن يعتمد في هذا الأمر على

أحد ، فانصرف غاضباً وظل سعد في عزلته بعيداً عن الشر النائر ناعماً

بالوحدة والهدوء ، ودره تفكر في أهلها كبيرة الأمل- في يوم تهب فيه

نسائم عذاب تهديها إليهم ، وتريح صدرها مما يضطرم فيه .

## الحجة

كان العام الخامس والخمسون الهجري يطوى أعماراً وينشر أعماراً ، وقد استقرت الخلافة بعد النزاع الطويل لمعاوية بن أبي سفيان ، وانتقلت عاصمة الدولة من المدينة إلى الشام ، وسعد في وادي العقيق يتردد بينه وبين المدينة أو يذهب إلى مكة ثم يعود ، وكان لهاشم ابن أخيه مولى من الأسرى الذين وقعوا في يده وهو يطارد يزدجرد بجلوان ، فأحبه هاشم لعفته وذكائه وأعتقه ، لكنه ظل يعمل عنده ، ثم أقبل معه إلى المدينة ، ولم يتزوج حتى جاوز السبعين ، منتظراً ابنة عم له تعاهد وإياها على الزواج صغيرين ، ثم خطفت وهي في الطريق من الحيرة إلى اليمن ، وقد أقسم أن يبر بعهدته حتى يجدها أو يموت .

وذات يوم كان سعد بن أبي وقاص يجلس في حديقة قصره بالعقيق ، وحوله أبناؤه الكثيرون كباراً وصغاراً ، فنظر إليهم جميعاً وهز رأسه وامتلات عيناه بالدموع ، فصاح واحد من أبناؤه :  
— خيراً يا أبتاه !

— خيراً يا بني ، ذكرت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعودني عام الفتح ، وكنت أشرفت على الموت ولم يكن لي غير أختكم الكبيرة

فقلت : يا رسول الله إن لي مالا كثيراً ولا يرثني إلا ابنتي ، أفأتصدق بثلثي مالي ؟ . قال : لا . قلت فبالشطر ؟ .. قال : لا . قال : فالثلث والثلث كثير ، إنك إن تركت ورثتك أغنياء خير من أن تركهم عائلة يتكفون الناس . فأحمد الله يا أبنائي أن جعلكم لي عقباً صالحاً وآتاني من المال ما يغنيكم عن الناس .

وتذكر سعد تلك العجوز التي أفنت حياتها وراء الأمل ، فدعاها ونظر في وجهها الذي خطت فيه الأيام أكثر من سبعين عاماً ، وصمت قليلاً ثم قال في تأثر :

— أين الجبة يا درة ؟

فأسرعت في خطوات قارب بينها كر الأيام ثم عادت بالجبة ، فنشرها سعد بين يديه وامتلات عيناه بالدموع ، ثم طواها ومد يده بها صائحاً :

— رديها يا درة ، احفظيها لوقتها .

ومضى بدرة التفكير في خمسة وخمسين عاماً طوتها الحياة على تلك اللقافة ، ثم قالت في تأثر :

— أسر هذه الجبة معقود بسر أهلي ؟ ! لا حل لهذا ولا لذلك

يا سيدي !

— ستعرفين يا درة قريباً أمر هذه الجبة ، ولكن ألا تزوجين ؟ !

ألا تزالين تتعلقين بالخيال ؟ !

— ثقتي كبيرة في الله يا سيدي !

وصمت سعد في تأثر ، ثم قال في هدوء :

— عند ابن أخي هاشم بالمدينة رجل في مثل سنك ، يقول مثل ما تقولين ، وينتظر أن يفي بعهد مثل عهدك بعد أن جاوز السبعين ، ألا نجمع بين الأملين يا درة ؟ !

— قد لا يكون هو يا سيدي !

— نجمع أملاً إلى أمل وعهداً إلى عهد ، وتنسين أنت ما فات وينسى هو ما مضى !

وودت درة لو رأت ذلك الرجل ، وهمت أن تطلب من سيدها دعوته ، ثم خشيت أن يحمل طلبها على أنها رضيت بزواجه فصمتت ، لكن سعداً أرسل يستدعيه ، ثم أحس بشيء في صدره فقام إلى فراشه واضطجع فيه . وأقبل هاشم ومولاه ، ونظر سعد إلى الرجل فابتسم ابتسامة راضية إذ كان قريب الشبه من درة ، ثم قال له في هدوء :

— من أين أيها الشيخ ؟

— من الحيرة يا سيدي .

— عربي أيها الشيخ ؟

- عربى يا سيدى ، كنت أعمل مع عمى فى قصر كسرى .  
 — ولم انصرفت عن الزواج حتى هذه السن ؟ !  
 — إرادة الله يا سيدى ! قدرة فوق القدرة ، وقوة فوق القوى !  
 — وإلى متى أيها الشيخ ؟ !  
 — حتى يأذن الله وأنتى من أنتظر !  
 — وإذا وجدتها أيها الشيخ ؟ !  
 وصمت سعد وقد أحس بوخزة فى صدره ، وأذن للرجل بالانصراف  
 ثم قال لهاشم فى صوت خافت :
- كأنه هو يا هاشم ! إنه كبير الشبه بدره ؛ ولكن الوجوه تتقارب  
 والناس يتشابهون ولا أظنها تعرفه إذا رآته إلا أن تكون جاذبية الدم ، فتأكد  
 يا هاشم من أمره لتجمع بين هذين القليلين اللذين فرقت بينهما الأيام .  
 خرج هاشم ، ودعا سعد درة ونظر إليها ، واستعاد ذهنه درة الصغيرة  
 ذات الوجنتين المتوردتين والعينين النجلاوين ، وجعل بجانبها هذه العجوز  
 التى غيرت منها الأيام ثم صاح فى تأثر :
- سيتحقق الأمل يا درة ، ولكن أين الجبة ؟  
 فأصرعت درة ثم عادت بالجبة ، فنشرها سعد بين يديه ، وانهمرت  
 الدموع على خديه ثم قال فى صوت مختنق :
- سأفارق الحياة يا درة ! وقد أوصيت هاشما بما يثلج صدرك .

— بقيت يا سيدى ، عمر طويل وعمل صالح !

— أبعده الثمانين يا درة ؟ !

— وبعد أضعافها يا سيدى ، تعمر كما يعمر الكثير من العرب .

— أحس بدنو الأجل يا درة وأخاف لقاء الله ، سفر طويل وزاد

قليل ! !

وصمت سعد ودموعه منهمة ، وبدا الإعياء في وجهه ، فأسرعت درة ثم عادت بأبنائه وأهله ، فالتفوا حوله يدعون له بالسلامة والعمر الطويل ، فقلب عينيه في وجوههم ثم قال والدموع تشق خديه :

— إنها الحياة يا أبنائى إخذاعة غرارة ، لا بقاء فيها وإن طال الأجل وامتدت الأيام ، صاحبها كراكب استظل بظل شجرة ثم تركها وانصرف .

ووضع يده على كبده ثم قال فى أنفاس مسرعة :

— مرضت يا أبناء ذات مرة فوضع رسول الله يده على جبتهى ومسح وجهى وصدرى وبطنى وقال : اللهم اشف سعداً ، فلا أزال أحس برد يده على كبدى حتى الساعة ، وإنى فى شوق إليه ، خائف من لقاء الله ، وقد أعددت لهذا اليوم جبتهى التى حرصت عليها خمسة وخمسين عاماً ، منذ لقيت المشركين فيها بيدر لتشهد لى ساعة اللقاء !

وأدار عينيه فيمن حوله حتى وقع بصره على هاشم ابن أخيه

فصاح به :

— درة يا هاشم ! حقق أملها ، ولا تتمهل بعد أن تنفضوا أيديكم من  
قبري حتى تنفذ ، درة يا هاشم !

ومد سعد يده ومسح بعض الدموع المتحدرة على وجهه ، ثم أراد أن  
يعيدها مرة أخرى فارتمت بجانبه وشفثاه ترددان في همس :  
« وجاءت سكرة الموت بالحق ، ذلك ما كنت منه تحيد » . أشهد  
أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

ثم سكت الصوت والتصقت الأجفان على العينين النافذتين ، وسكن  
الجد الذي طالما تحرك في سبيل الله ، ووقف الأحياء حول الجثة في  
خشوع ، ثم غسلوها وكفنوها في جبة بدر .

وفي الصباح كان المسلمون يتزاحمون في الطريق من العتيق إلى  
المدينة ، يتسابقون في تقديم كواهلهم لتحمل نعش سعد بن أبي وقاص  
خال رسول الله وصاحب رسول الله ، حتى وصلوا مسجد الرسول فصلوا  
عليه ثم ساروا به إلى البقيع ليثوى مع من سبقوه إلى رضوان الله من  
الصحابة الأبرار .

رقم الإيداع	١٩٩٥/٩٥٧٣
الترقيم الدولي	ISBN 977-02-5105-4

٧/٩٥/١٠٢

طبع مطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

obeikandi.com